

ظِلِّكَ
الَّذِي
يُشْبِهُ
حُدُودَ
وُطْنِي



وطني

ظِلُّكَ الَّذِي يُشَبِّهَ حُدُودَ وَطَنِي

ظِلُّكَ الَّذِي يُشَبِّهَ حُدُودَ وَطَنِي

رواية

تأليف : وطن

© 2026 وطن

جميع الحقوق محفوظة

الإهداء

إلى فلسطين

التي أنتزعتُ عنها كما تُنتزع الروح من الجسد

إلى القبة الأولى للروح

إلى أسرانا

الذين يصنعون من الزنازين سماءً تعلو على سماءِ المحتل

و يحملون الوطن في أيديهم المقيّدة

و إلى شهدائنا

الذين ارتقوا ليعلمونا أن جسر الحرية لا يُبنى إلا بالدم

وتركوا لنا ميراث التار الثقيل

إلى غزة

مدينة تُقاتل عالماً وحدها، يوسفية أنتِ

لكِ هذه الرواية ولكِ كل ما لم تستطع اللغة أن تقوله

إلى من يجهله العالم ، لكنه يعرف نفسه .
من علّمني أن للحب طهراً يشبه الفجر ، ثم جعلني
أبحث عن وطني مرتين :
مرّة في الخرائط ، ومرّة في قلبي .
إليك ، لأنّ غيابك
فتح في روحي منفى آخر ...

المقدمة

حين رأيتُكَ أول مرة ، شعرتُ أنني وجدتُ وطني قبل أن أفقده ، وكان شيئاً في ملامحك كان يعرفني وكان يهمس لي بهدوءٍ :

إنَّ الوطن ليس دائماً أرضاً ، بل قد يكون وجهاً يمرّ أمامك في لحظةٍ فيعيد ترتيب قلبك كله .

لم أكن أعرف أن للمنفي وجهين ، حتى فقدتُ وطني و فقدتُكَ .
ومنذُ ذلك اليوم وأنا أبحث عنكما معاً . . .

عن وطنٍ لم ينجح المنفي من إخمادِ اسمه، وكانَ هذه الأرض كلما حاولوا اقتلاعي منها، نبتتُ فيها أكثر ، كجذرٍ ثابتٍ يرفض معنى الرحيل .

و عن رجلٍ يشبه حدود الوطن أكثر مما يشبه نفسه، كأنه وطنٌ آخر لا تحمله الخرائط ، وطنٌ علّمني أن الفقد يبدأ من الأرض، و رجلٌ علّمني أن الفقد يكتمل بالقلب ، لأجهل أيكما كان المنفي الحقيقي وأيكما كان الوطن ،

فأصبحتُ أبحث عن نفسي التي ضاعت بينكما ، و كأنني خريطة ناقصة لا تكتمل إلا بكما .

لا أدري من منكما يشبه الآخر ، هل الوطن استعار ملامحك ليبقى قريباً مني ؟
أم أنك اتخذت ملامحه ليصبح الفقد واحداً ؟!

ربما لهذا السبب أكتب، لأن الكتابة هي الشيء الوحيد الذي يسمح لي بالعودة لكليكما معاً ،

ظِلُّكَ الَّذِي يُشَبِّهَ حَدُودَ وَطَنِي

و الطريق الوحيد الذي لا يمنعني أحد من عبوره، لأنه لا يحتاج إلى جواز سفر، ولا إلى معجزة، أو إلى أهل يعترضون ، ولا حتى إلى وطنٍ يتحرّر .
وها أنا الآن ، مازلتُ أتتبع الطريق إليكما ولو على الورق !

عزيزي القارئ . . .

لقد كتبتُ هذه الرواية لأوقظ شيئاً نائماً فيك .

هذه الصفحات عبارة عن مواجهة صريحة ستجد نفسك بين السطور أكثر مما تجدني .

لم أكتب لأعجبك ، و لا لأمنحك الطمأنينة ، بل لأنتزعها منك وأزعجك ، لأريك ما كنت تتجاهله

والشيء الذي مازلت تهرب منه ، و لأضعك أمام مرآتك دون رتوش .

لكنك بعد روايتي هذه لن تبقى كما كنت ، و ستتغير رغماً عنك و هذا أجمل ما في الأمر .

لأن هذه الرواية رحلة لا ترحم ، لكن إن خرجت منها كما دخلت ، فقد خذلت نفسك .

خذ ما تحتاجه منها و اترك الباقي يحترق ،

و كن على يقينٍ بأنك ستتأذى قليلاً ، لتشفى كثيراً .

فالصفحة الأولى كانت ألطف مما سيأتي ، هذه أول شرارة والبقية نار . . .

ظُلُّكَ الَّذِي يُشْبِهَ حَدُودَ وَطَنِي

حِينَ كَبُرْتُ دَاخِلَ خَرِيطَةٍ

الفصل الأول

الوطن أكبر من مساحة

أذكرُ جيداً اللحظة التي شعرت فيها لأول مرة أنني أنتمي لشيءٍ أكبر مني ،
كنتُ أدركُ أنني أعيش في أرضٍ لا تحفظ اسمي ، مخيمٌ صغيرٌ لكنه يحمل
داخله بلداً كاملاً ، لتكون الشوارع باسم فلسطين والمساجد باسم القدس .
والمدارس تسترق أسماء المدن لتحاول تعويض غيابنا عنها ، فترى مدرسةً باسم
غزة و أخرى جنين وتلك حيفا وهذه الدامون ، لتدخل المدرسة وكأنك تدخل
مدينةً كاملة .

أتذكرُ الطريق إلى المدرسة الذي كان أطول من عمر الاحتلال ، لأننا كنا نمر
على صور الشهداء المعلقة على الجدران ، فنخفض أصواتنا احتراماً لتضحياتهم
و نرفع رؤوسنا فخراً ببطولاتهم التي نجهل معظمها
ونمشي بخطواتٍ صغيرةٍ و نحن نردد الأناشيد الفلسطينية وكأننا نعبر تاريخاً
كاملاً .

كبرتُ لأفهم أن المخيم لم يكن صغيراً كما كنت أظن ، بل كان العالم كله بأزقته
الضيقة و جدرانه المتشقة و أصوات الجيران التي تتداخل كأننا في منزلٍ واحد
و صور الشهداء التي تزيّن الشوارع ليس كي نتذكرهم ، ولكن كي لا ننسى .
إنه المكان الوحيد الذي يربي فينا فكرة أننا ننتمي لشيءٍ لا يمكن لأحدٍ انتزاعه .
شعرتُ دوماً كما لو أننا نكبر داخل خريطةٍ معلقة على الجدران و في أرصفة
الشوارع ، كأن المخيم حملني قبل أن تحملني أمي .

منذ نعومة أظفاري وأنا أردد الأناشيد الوطنية و أحفظها كما يحفظ الأطفال أسماء ألعابهم ، لكنني لم أكن أحفظ كلماتٍ فقط ، كنت أحفظُ وجعاً أكبر من حقيبتَي المدرسية .

كنتُ طفلةً لا تعي معنى الحدود ، لكنني كنتُ أدرك جيداً معنى أن يُعلن شريط الأخبار لحظة الصمت و يتمتم جدي رحمه الله بعباراتٍ لا أفقه منها شيء لكن كنت أفهم جيداً معنى انكماش ملامحه وتقلص المسافات بين حاجبيه وكأنها خطوطٌ رفيعة رسمها القلق على جبينه ، كنت أجلس قرب جدّي ، أراقب شريط الأخبار وهو يمرّ كأنه قطارٌ محمّل بالوجع ، وأسمع المذيع يذكر أحكاماً لا أفهمها :

"مؤبّد... مدى الحياة..."

لم أكن أعرف الفرق بينهما ، ولكنني كنتُ أعرفُ تماماً أن كليهما يعني عمراً يُسرق من رجلٍ كان يحلم بالعودة ، و أنهما تعنيان أن الأسير لن يعود ، وأن أمّه ستبقى تنتظر باباً لن يُفتح .

بعضهم يدخل السجن شاباً ويخرج شيخاً ، وبعضهم يدخل أباً ويخرج ليجد أبناءه قد صاروا آباءً ، وبعضهم لا يخرج أبداً، لكن اسمه يخرج كل يوم من أفواه الناس

كان قلبي يعرف أن الحرية ليست خبراً عابراً ، وأن الأسر ليس مجرد كلمة ، يعيشون في سجون أشبه بالمقابر ، الزمن فيها لا يُقاس بالوقت ، و إنما بالألم .

كانت تُعَرِّضُ صورة الأسير على قنوات الأخبار الخاصة بالأسرى لنرى صورهم ، و تحت كل صورة كانوا يكتبون الاسم والحُكم .
وجوهم لم تكن واضحةً بالنسبة لي ، لكن ملامح الصبر التي تكتسيها كانت أوضح من أي شيءٍ آخر .

شعرتُ دوماً أنَّ الأسير يُشْبِهَ صفحةً مطويةً لم تكتمل بعد ،
وملامحه تبدو حادة وكان الزمن صقلها بيديه .

أما عينيه الثابتتان ، فكان فيهما شيءٌ لا يُفسَّر ،
يجعلك تشعر أن الحرية ليست ما نعيشه نحن ،

وإنما ما يعيشه هو رغم كل ما سُلِبَ منه ، لترى نفسك مقيداً رغم حريتك وهو
الحر رغم زنزانته الضيقة التي لا تتسع حتى لخطواته .

وراء الجدران العالية ، هناك رجالٌ يكتبون رسائل تُهَرَّبُ كأنها أنفاس ،
ويحكون للعالم أن الأسير ليس رقماً ، بل حكايةً كاملة لا يستطيع السجّان محوها .

يعيشون حياةً معلقة بين الأمل والوجع ، يُعاقبون لأنهم أحبوا أرضهم ،
ويُحاصرون لأنهم رفضوا الانكسار ، هم الذين يحولون الصبر إلى سلاحٍ لا
يُهْزَم .

كنتُ أرى الأسير يسرق أعمار الرجال ، حتى كبرتُ لأفهم أن للأسر وجوهاً
كثيرة حين وجدتُ نفسي أسيرة عشقك ، و أحببتُ هذه القيود .

في تلك الأيام كنت لا أعرف من الوطن سوى أنه خريطة تُرسم ، و أغنية
ترددها أمي وهي تمسح الغبار عن الرفوف .

كنتُ أرى فلسطين في كل شيء . . .

في النشيد الوطني الذي نتلوه كل صباح في المدرسة لنفتتح به اليوم ،
في مفتاح صدئ يخبئه جدي بين ملابسه خشية أن يضيع وكأنه شيء ثمين رغم
قَدَمِهِ ، هذا المفتاح الذي لم يفتح باباً منذ زمن ، لكنه فتح داخلي ألف سؤال .
كيف شكل الباب ؟ هل هو كبير أم صغير ؟

كيف يبدو المنزل من الداخل وهل قرיתי جميلة كما يصفها جدي لي دوماً !
من يسكنها الآن وكيف أصبحت بعد أن احتُلت ؟
كان يحكي لي عن عين الماء الذي تشرب منه الغزلان والذي كان سبباً لتسمية
قريتي باسم "عين غزال" وعن أشجار الزيتون التي كانت تشيخ بكرامة و
برتقال يافا الذي يعكس المدينة التي تقاوم بالنكهة والجمال .
كبرتُ وأنا أسمع كلمة " إحتلال " أكثر من كلمة " عيد " .

أما " العودة " فهي الشيء الوحيد الذي لا يتغيّر ، لتجعلني أشعر أن فلسطين
هي أول حبّ عرفته قبل أن أعرف معنى الحب ، وأنني مهما كبرت سأظلّ تلك
الطفلة التي ترفع رأسها نحو شاشة الأخبار وتحاول أن تفهم ما يحدث في العالم
من بين حاجبي جدّها .

أشعر و كأن طفولتي مازالت تمسك بيدي و تدلّني على الطريق الذي يبدأ من
فلسطين ولا ينتهي عندها .

سوريا التي عرفتھا لم تكن تلك التي رأيتها لاحقاً .
و حين كبرتُ أكثر ، كانت سوريا تمتد داخلي كما تمتد فلسطين ، ظننتُ أن الوطن واحد ، لكن قلبي حمل الوطنين معاً حتى و هما مثقلين بالحرب .
شعرتُ دوماً أن كل شيء في سوريا بدا شامخاً ، أشجار الياسمين التي كانت تزيّن الشرفات كأنها ترفض أن تتخلى عن جمالها مهما اشتدّ الخراب .
الثلج الأبيض الذي يكتسبه جبل قاسيون ليثبت صفاء البلاد .
لكن الحرب غيرت كل شيء ، لم تعد سوريا كما عهدتها سابقاً .
فُسِّمَتِ البلد إلى دويلات ، و صارت المدن تتنفس بصعوبة و كأنها تحبس أنفاسها خوفاً من القادم ، و الشوارع تجرّ أقدامها كأنها تعبت من الجري خلف الأمان ، لنرى سوريا التي كانت تضج بالحياة كيف أصبحت تضج بالرعب .
رأيتُ الخوف يمرّ في الهواء ليخترق البيوت و يجلس على الكرسي كأنه مقيم ، و ليس مجرد ضيف ، و الليل طويل يُشَبِّهُ ساحةً سوداء تختبئ فيها أصوات الطائرات ، فترتجف الجدران الثابتة ، و صار الضوء الذي يلمع في السماء لا يشبه النجوم ، يشبه النهاية .
حين بدأت الحرب في سوريا ، لم تكن حكاية تُروى بقدر ما كانت واقعاً يطرق الأبواب بعنف ، وصوتاً يهزّ النوافذ ، وظلاً يمرّ فوق رؤوسنا كلما حلّقت طائرة ، كنتُ أسمع عن حربٍ هناك ، وأعيش حرباً هنا .
حربٌ تُروى ، وحربٌ تُعاش ...

في فلسطين ، كنتُ أرى الحرب عبر دمعَةٍ تختبئ بعين جدّي ، وفي سوريا رأيتها بعينيّ أنا ، بصوتِ الانفجار الذي كان يسبق نبضي أحياناً .

لكنني عرفتُ أن الخوف لا يحتاج عنواناً ، وأن الحرب حين تطرق باباً تترك أثرها على كل الأبواب .

مضت السنين

لأدرك أن الوطن ثابتٌ والناس هم من يرحلون ، ظننتُ أن السفر رحلة ستنتهي يوماً ما ، وأنّ العودة قريبة ، حتّى كبرتُ وكبرت المسافاتُ معي وصرتُ أفهم أن الطريق إلى الوطن ليس طريقاً جغرافياً ، وإنما طريقٌ يبدأ من القلب ولا ينتهي عند الحدود .

فهمتُ أخيراً أن الحرب تقتلُ الإنسان قبل أن تقتله الرصاصة .

مررتُ ذات مرةٍ بعبارَةٍ : " نحن لاجئون هنا... لكننا لسنا غرباء . "

كنتُ أفهم نصف الجملة ، وأعيش نصفها الآخر .

فلسطين كانت الوطن الذي لم أراه ، لكنني عشتُ فيه عبر شاشة التلفاز و الأغاني والحكايات ، وسوريا كانت الوطن الذي رأيته ينهار أمامي حجراً حجراً ،

وكنتُ أنا بينهما ...

طفلةٌ تحمل ذاكرة بلدين وتخاف على كليهما ، لتحمل قلباً صغيراً يتسع لكل هذا الخراب .

بدأت أخطو أول خطوة خارج الخريطة ، وبدأت الأرض تنسحب من تحت قدمي دون أن أودّعها

رأيتُ البيوت تبتعد ، و الهواء يتقلص ، وكأن شيئاً في صدري كان يُنتزع مع كل خطوةٍ أخطيها

ومنذ تلك الليلة بدأت أفهم أن الغربة ليست مكاناً جديداً و إنما فقدتُ يتكرر من الماضي ، و جرحٌ قديمٌ يفتح نفسه ليذكّرنا بالألم .

و حين وصلتُ إلى الغرب ، كان البرد أول ما استقبلني .

حبّات المطر تتسابق مع الريح على لحفٍ وجهي ، بردٌ لا يُشبه برد بلادنا .

كانت الشوارع واسعة ، والليل قاتم بأضواءٍ خافتة ، تُنير مع كل خطوةٍ أخطيها كأنها تذكّرني بأنني غريبة .

حتّى الثلج كان مختلفاً رغم بياضه ، إلا أنه غطّى كل شيءٍ باستثناء قلبي الذي ظلّ يحمل رماد الحروب .

الوجوه هناك كانت مُسرعة و العيون مصوّبة نحوي بنصف ابتسامة .

تعلمت منهم معنى الإبتسامة التي تُغلّف الخبث ، والكلمة التي تُقال بتهذيبٍ لكنها تحمل رفضاً صريحاً .

و أن القانون فوق الجميع لكنه أحياناً يدهس الضعفاء أيضاً .

في الغرب كان كل شيءٍ مرتباً و بارداً أكثر مما يجب ، تعلّمت كيف أبتسم في وجه موظفةٍ تسألني عن البلد الذي عشتُ فيه والبلد الذي أنتمي إليه وكأنها تسألني عن هويّتين معاً .

كنت أشعر أنني قوية بما يكفي لأبدأ من جديد ، لكنني في الحقيقة كنتُ أبدأ بالضياح في بلدٍ يلفظني بلطفٍ بارد ولا يُدرك أنني أحمل على كتفي تاريخ بلدٍ آخر .

وفي اللحظة التي كنتُ أظن فيها أنني فقدتُ كل شيء

كان للقدر رأيٌ آخر ، وضعني وسط سؤالٍ غريب :

هل يمكن للإنسان أن يجد وطناً في وجه إنسانٍ؟!!

أحياناً لا نبحث عن أحد فجأةً ، و دون ترتيب ، نجد أنفسنا في عينيه .

دخلت أنت ، كأنك والوطن والغربة مرايا تعكس بعضها .

لم أكن أبحث عن أحد ، ولا كنتُ مستعدةً لظهورك ، كنتُ أمشي في أيامي كما تمشي الأشياء الثقيلة ببطء ، لكنك دخلت حياتي بهدوءٍ يشبه اليقين ، و وقفت أمامي بثباتٍ لا يملكه إلا من يعرف تماماً أين يضع قدميه .

لم تكن رجلاً مرّ ، كنتُ لحظةً انفتحت بعدها بابٌ لم يُغلق منذ ذلك اليوم .

كان يكفيني أن ترفع عينيك
ليبدأ العالم من جديد

الفصل الثاني

أَكْتُبُكَ لِأَبْقَى

أذكر ذلك الصباح جيداً كما لو أنه يحدث الآن . . .

كان صباحاً نقيّاً يشبه لمعة عينيكَ الصافية ، و نسَمَاتِ الهواء الخفيفة فيه تداعب زجاج النوافذ بلا اهتمام ، أجزّ فيه خطواتي نحو حصّةٍ لا تعني لي شيئاً لأدرس لغةً بلدي لا تشبهني ، كأنني أدخل فراغاً آخر لا أكثر.

حوالي الساعة التاسعة دفعتُ باب القاعة بيديّ يحتضنها الضجر لأراك أول مرة هناك . . .

جالساً على الكرسي في الجهة اليمنى بهيئةٍ لا تتكلّف ، و وقارٍ لا يطلب الإنتباه لكنّه يأخذه رغماً عن الجميع ، يومها كان حضورك علامةً لا يمكن تجاهلها ، كان شيئاً فيك يعرف طريقه إليّ قبل أن أعرفه أنا .

و منذ ذلك الصباح لا أعرف إن كنت قد دخلت الصف أم دخلت إلى قدري ، لتسحب شيئاً من داخلي وتتركه معلقاً بيني وبينك .

كُنْتُ حاضراً لأنك مُجَبَّر و كُنْتُ منزعة لتقسيم الصف إلى مجموعات ، لولا ستر الله لتشاجرتُ معك في أول يومٍ لك قبل أن أعرفك .

ثم تم فصلنا إلى مجموعتين بسبب فروق المستويات ، لكن أول عشر دقائق من كل يوم كنا نجتمع معاً لنستذكر ما أخذ سابقاً ، ومن هنا بدأتُ باستكشافك لتتسلل في أجوفي .

كنتُ أتوقُّ لتلك الدقائق كي اسمع حروفك واتمنى ألا تنتهي .

بعد ثلاثة أيام من حضورك بيننا . . .

كان هناك حفلٌ صغير يُقام لتوديع إحدى الطالبات ، أو ربما كان حفلاً لتُقيم أنت في قلبي دون دعوة .

كانت الضحكات عالية ، والكلمات كثيرة ، تتداخل كأنها موسيقى بلا عازف ، لكنني لم أكن أسمع شيئاً سوى نبضي الذي يتراقص فرحاً لرؤيتك ، ويركض نحوك دون أن تخطو خطوة واحدة ، كنتُ أراقبك من بعيد ، كما لو أنني أبحث عن ملامح أعرفها قبل أن أعرفك ، عن شيءٍ يُشبهني فيك .

وفجأةً سقطت منك ابتسامة ...

ابتسامةٌ عابرة ، لكنها كانت تكفي لتعبث في مشاعري ، و حملت نظرةً تُشبه فنجان قهوة في صباح بارد ، تُدْفئ أطراف الروح ، و تخلق لوحةً مكتملة الجمال .

وكان البُن يحتسي سُمرة عينيك .

ومنذ تلك النظرة ، صار قلبي يلتفت إليك قبل أن تلتفت أنت ، شيءٌ صغيرٌ حدث لكنّه غيّر ترتيب العالم في عيني .

و في يومٍ من أيام الأسبوع التالي . . .

ازداد النقاش مع المعلمة ، حاولت كثيراً أن أشرح ، أن أدافع عن نفسي ، لكن الكلمات كانت تتبعثر مني ، حتى خانتني اللغة ، وكان صوتي لا يكفي وحده

وفي لحظةٍ مُباغتةٍ ، تقدّمتِ أنتِ ، بصوتٍ جهوريٍّ لا يعلو لكنه لا يُكسر ، يعكسُ مروءتكِ ، لم تكن تعرفِ القصةَ ، ولا التفاصيلَ ، ولا ما الذي دار بيني وبينها قبل ذلك ، لكنّكِ وقفتِ بجانبِي كما لو أن الأمرَ يعنيكِ ، وكأنّ قلبي ناداك دون أن أنطق باسمكِ ، لم تكن تدافع عني بالكلام فقط ، دافعتِ بالحضور ، بالشهامة التي سبقت الفهم ، وبالرجولة التي ظهرت قبل أن تُطلب ، حينها أدركت أن النبل طبعكِ ، ولم يكن موقفاً عابراً .

ومن يومها ازداد حبِّي لكِ ، لأنكِ كُنْتَ حاضراً يربكني ، قريباً بما يكفي ليهتزّ كل شيءٍ في داخلي ، وبعيداً ما يكفي لأخاف .

صرتُ أختلسُ النظرات من بعيد ، لا خوفاً منك ، بل خوفاً مما ينهض في داخلي حين تقترب ، ولأنكِ الشخص الوحيد الذي لا أريد أن أفسده بالإقتراب .

كنتُ أراقبك من مسافةٍ تحفظ قلبي منك ، وتحفظك مني ، مسافةً لا تُرى ، لكنها كانت تمتد بيننا كخيوطٍ مشدود ، كلما حاولتُ قطعه ازداد توتراً .

كنتُ شخصاً إن حاولتُ الإقتراب منه شعرتُ أنني أخون شيئاً لا أعرف اسمه .

فخشيتُ أن يلمس صوتي حضورك ، أو أن تفضحني نظرةٌ لا أقوى على ردّها ، أو أن ينهار ذلك الجدار الخفيّ الذي كنتُ أبنيه بيني وبينكِ كل يوم .

أتظاهر أنني لا أراك ، أسمع خطواتكِ ، وأقتنع نفسي أنها لا تعنيني ، وأهرب من الإعراف بأن وجودكِ كان يغيّر شكل اليوم ، ويُنبِتُ الزهور على الجدران ، ويعيد ترتيب الهواء ، ويجعلني أتنفّس بطريقةٍ أخرى .

لم أكن أعرف أن الهروب منك كان الطريق الأقصر إليك .

أذكر جيداً كم من مشكلةٍ حدثت بيني وبين المعلمات وكنت تستنكر ظلمهم لي وتحاول مساندتي .

أذكر أيضاً حينما تدخّلت بي إحدى الطالبات فغضبتُ منها وخرجت من الصف لبضع دقائق لأتفادى الشجار وانتظرتني أمام الباب لتسمع مني ما الذي جرى بيني وبينها وتحاول تهدأتي .

كُنْتُ كمن يُدرك تماماً كيف يتسرّب إلى القلب دون تخطيط و يقطنُ فيه عنوةً .

حين وقَعْتُ ورقة الإنتهاء من المدرسة ، لم يكن الأمر يعني لي شيئاً ، كنتُ أريد فقط أن أغادر المكان الذي صار يضيق بي كل يوم .

لكنّ يدي توقفت عنوةً ، لا أعرف لماذا ، كأن أحداً أمسك بها من الداخل .

شعرت لوهلة أن صورتك كانت مطبوعة على الورقة ، او في عينيّ ، ترددت لحظة ، كأن قلبي يسألني :

هل هذا توقيع نهاية الدراسة ، أم بداية الشوق ...

تركتُ المدرسة بعدها بأيام ، في آخر يومٍ لي حاولت أن أسرق وجهك و أطبعه في زاوية الذاكرة قدر المستطاع .

يومها قمتُ بتجهيز حفلٍ صغيرٍ لي ، كنتُ على يقينٍ أنه من تخطيطك .

رأيتُكَ وانت تضحك ، وانت تحدثُ زملاء بكبرياءٍ من يعرف ماذا يقول .

انتهى اليوم الأخير لي و غادرتُ المكان كمن يختبئ من قدره بستارة الهرب .

هربتُ من المكان الذي جمعني بك ، و ظننتُ بسذاجة أن المسافة ستطفئ شيئاً في داخلي ،

لكنّ المفاجأة جاءت حين وصلتني منك رسالة ، صِدِمْتُ لأنني أعرف أنك رجلٌ لا يعنيه الحديث مع الفتيات ، بدأت بسؤال بسيطٍ و عاديٍّ عَنِّي لكن وقعته لم يكن عادياً أبداً ، وكأنك تمدّ يدك عبر الغياب لتقول :

" أنا ما زلت هنا "

ومنذ تلك الرسالة بدأ شيءٌ يَتَفَتَحُ كنت أظنه قد أغلق .

تحدّثنا لساعاتٍ وكنتُ أرى حروفك كيف تتحول إلى فراشات .

ظننتُ أنها المحادثة الأخيرة بيننا ، ثم جاءت الرسالة الأخرى في اليوم التالي التي قلبت كل شيء ...

بدأت تخلق أحاديثَ فوضوية و الكلام يتلعثم في حروفك ، رجلٌ صلبٌ مثلك ما الذي يجعل حروفه ترتجف ؟

أدركتُ أنك تُخفي أمراً ما و تريدُ الإفصاح عنه ، لكنني لم أعي أنه يخصّني ، أو يخصّنا ، إلى أن نطقت بها

" أريد الزواج منك "

كانت الجملة بسيطة ، لكن وقعها كان كزلزالٍ في داخلي ، ومنذ تلك الرسالة ، لم يعد شيئاً كما كان . . .

بدأت الأحاديث تتكرر ، و اللقاءات أيضاً ، مرّة صدفة ، ومرّة قدراً يرتدي ثوب الصدفة .

أول لقاء كان في المدرسة نفسها ، بعد أسبوعٍ من مغادرتي لها ، ذهبتُ لأنني نسيت التوقيع على دوام آخر يومٍ لي .

إجراءً عابر رغم أن قلبي يعرف أن الأمر ليس عابراً .

أذكر يومها أنني دخلت المكان وأنا أبحث عنك دون وعي في وجوه الجميع ، في الخطوات ، في الأصوات ، وحين رأيتك ...

تكركب نبضي ، وتلعثمت الكلمات في فمي ، وشعرت أن الأرض ضاقت بخطواتي ، كنت أراك ، وأتظاهر بعدم رؤيتك ، لكن قلبي كان يفضحني في كل لحظة ، لاحقتك نظراتي حين خرجت مع زملائك و أنتم تتحدثون و كأنها تجري خلفك لتحيط بك بينما كل ما فيّ يحاول أن يكون ثابتاً .

ثم جاء اللقاء الثاني . . .

وكان في يوم أبيض ، الثلج فيه يغطي كل شيء ، البيوت ، الأرصفة ، الأشجار ، حتى الهواء كان أبيض .

لكنّ البرد الذي كان يلسع وجهي ، تحوّل إلى نارٍ حين اقتربت منك ، نارٍ من الشوق ، ومن المشاعر التي لم أعد أعرف كيف أخفيها .

في تلك اللحظة فهمت أن قلبي لم يختَر أحداً قبلك و لن يعرف أحداً بعدك . . .
كم تمنيت أن أتكاسم عمري معك ، غير أن العادات والتقاليد كانت أقوى منا .

و جاء :

" رفض العائلتين "

رفضاً واحداً لكنه بدا بصفتين ، وكأن العالم كله اتفق فجأة على أن يضع بيننا جداراً لا يُرى ، فقررنا بغباء المحبين أن نكون " أصدقاء " ، كلمة لا تشبه ما في قلبي ، ولا تشبه ما في عينيك ،

لكننا قلناها لنقنع أنفسنا أننا نستطيع أن نطفئ النار بالاسم .

لكنّ المشاعر اشتعلت داخلي أكثر، كأن الصداقة كانت الوقود لا الإطفاء .

الأحاديث تكاثرت كتكاثر مشاعري اتجاهك .

رأيتك صدفةً مرةً أخرى تتسوّق ، كنتُ أسير بعجلةٍ خلفك ، ولا أدري أنك أمامي إلى أن التفتت فجأةً لتتساقط الحروف مُكسّرة ولم أعد أذكر ماذا سأشتري ، ونسيْتُ العالم كلّهُ بنظرةٍ من عينيك ، وكانت هذه من أجمل الصدف في حياتي .

حينها جعلتني أدرك أن النجاة منك ليست ممكنة ، فصار حضورك يتسرّب إلى أيامي دون إذن ، كأنك ظلّ لا يغادرني حتى حين أغادر الأماكن التي جمعتنا .

أقنعتُ نفسي كثيراً أن الأمر مجرد صدفة ، مجرد ارتباكٍ عابر ، لكنني لم أستطع إقناع قلبي كيف يمكن لرسالةٍ واحدةٍ منك أن تُنبت في الهواء زهوراً و أن تغيّر مزاج يومٍ كامل .

بدأت المكالمات بيننا بالساعات ونتراسل معظم النهار ، حينها فهمت شخصيتك أكثر ، كنتُ اقرأ كلماتك كما تُقرأ الأوطان بخشوع

أعدتُ مراراً قراءة رسائلِك لأفتش فيها عن شيءٍ أحمله في داخلي ، عن دليلٍ صغيرٍ يقول أنك شعرت بما شعرتُ به أنا .

اكتشفت أنني غارقةٌ أكثر مما أعترف ، فالأشياء التي كانت تمرّ عاديةً صارت ترتبط بك ، و الأماكن التي لم يكن لها معنى ، صارت تحمل احتمال رؤيتك .

و الأيام المتشابهة صارت تختلف بقدر ما أقترّب منك أو تبتعد عني .

إلى أن انطفئ كل شيء ، فأصبح الشوق وجعاً يمشي على قدمين .

لذلك يا وليد قلبي جاءت اللحظة التي تُعَرِّي كل شيء
سأرتكب جرأتي الأولى

قررتُ أخيراً أن أكتبك ، أن أفضحك على الورق .
أنت رجلٌ يجعل الحب انتحاراً ، و الصمت نجاةً مؤقتة ، ويجعل الإعتراف
جريمة .

أنت مَنْ يُربك اللغة ، ويحوّل الشوق إلى سرٍّ ثقيل أحمله وحدي .
بعض الغياب لا يُحتمل إلا حين يُكتب ، وبعض الحب لا يُفهم إلا حين يُفصح
في الأمر خيانة . . .

ولكنك تعرف ، أنا أضعفُ من أن أخفيك، وأجبنُ من أن أعلنك، وأصدق من أن
أنكرك .

أنا ضحية نفسي يا أنت ، وأنا من قرر أن يكتبك بدل أن ينساك ، لأنني لا أجيد
الهرب ، ولأنني أعرف أن الأشياء التي نهرب منها تظلّ تلاحقنا حتى نواجهها ،
فها أنا أواجهك الآن ، لا رغبةً بأن تعود ، وإنما لأشفي منك .

زرتُ الأماكن التي جمعت قلوبنا ، ليس لأراك ، لأتأكد أن الغياب لا يكذب .

جزءٌ مني ما زال يمدّ يده نحوك ، حتى وهو يعرف أنك لست هنا ، وأن الحقيقة
التي كنتُ أهرب منها ، كانت تقف هناك منذ البداية ، تلوّح لي كمن يقول :

انظري ... لم يبقَ شيء سوى أنتِ ...

نحنُ مقيدون بأغلال المشاعر يا وليدي !

أعود وأنا أعرف أن الشفاء ليس نسيانك ، بل قبول أنك لم تكن يوماً قدراً ،
وكنّت تجربةً كان عليّ أن أخرج منها حيّةً ، ولو بجرحٍ لا يلتئم ...
أتذكّر المعلمة الشابة التي كانت الأقرب لقلوب جميع الطلاب ؟ و الأكثر قدرة
على جعل الحصة تبدو خفيفة مهما كان موضوعها .
في إحدى الحصص المدرسية ، كنا نتناول موضوع ثقافة البلدان والشعوب ، و
تطرّقت هذه المعلمة إلى الدين فقالت لنا أنها تعتنق الديانة المسيحية ، لكنها تريد
الإلحاد .

استوقفني كلامها ، فسألتها بهدوء :

لماذا تريدان الإلحاد ؟ ما الشيء الذي يدفعك لفعل ذلك و ترك الدين ؟
أجابتنني كإجابة جميع الملحدان الذين مرّوا بحياتي بأنها لا تعرف من هو الله و
لا تعرف ما هو الدين الحق الذي عليها تتبّعه .

سكّنتُ لوهلة ، ثم سألتها سؤالاً آخر : حين يمرض ابنك مرضاً شديداً ، ماذا
تفعلين ؟

أجابتنني : أدعو الله أن يشفيه .

قلت لها بثقة : إذا تعترفين بوجود الله .

احمرت وجنتاها ثم أجابت بسرعة وكأنها تبحث عن مخرج : أدعو لروح والدي
أن تنزل عليه وتشفيه .

سألتها : و كيف توفي والدك ؟

أجابتنني و قد بدت مرتبكة : بنوبةٍ قلبية .

قلت لها : اذا لم يستطع والدك مساعدة نفسه فتوقى ،

فكيف سوف يساعد ابنك ؟ !

ساد الصمت في المكان . لم تُجِبنِي المعلمة ، وبقي السؤال معلقاً في الهواء ،
كأنه لا ينتظر جواباً بقدر ما يترك أثراً . . .

حينها أدركت أن الإنسان الملحد يعتزم عدم معرفة الله أو يشكّ في وجوده ،
لكنه في لحظة خوف أو عجز يلجأ إلى الدعاء ، مهما أنكر ، يعود إلى شيء
أكبر منه .

بقي ذلك الحوار عالقاً في ذهني ، كأنه لم يكن موجهاً للمعلمة وحدها ، و إنما
موجه لي أيضاً ، إلى أن أخذني الزمن نحوك دون قصد .

رأيتُ فيك صورة المسلم الذي لا يتكلّم كثيراً عن الدين ، لكنه يعيشه بكل
تفاصيله ، كنت مسلماً حقيقياً بطريقة لم أعتد رؤيتها في هذا العالم المنافق ،

عالمٌ يرفع شعارات الإيمان في العلن ، و يخونها في الخفاء ، لتُثبت لي أن
الإسلام ليس كلماتٍ تُرتدى ، و لهذا السبب حين أحببتُك ، لم أشعر أنني أخطأت
، شعرت فقط أنني بحاجة للاعتراف بما لا أجرؤ على قوله :

أحبك ، و كلّني ينحازُ إليك ، و تبدأ حياتي من صوتك ، و تنتهي بصمتك ،
لأكون امتداداً لظلك .

و حين أعترفت لنفسي بحبك ، أدركت أن ما شدني إليك هو ذلك النور الذي
يربطك بربك .

و مع مرور الوقت بدأت أرى الأمور بوضوح أكبر
بدأت أقترّب من الإسلام أكثر ، لأفهم أنه ليس دين يُمارس ، بل منظومة حياةٍ
كاملة تُعيد ترتيب الإنسان من الداخل .
و أن تعاليم الإسلام ليست أوامر و نواهي ، هي قواعدٌ تحفظ الإنسان حتى من
نفسه ، و تمنح الحياة توازناً .
إن الإسلام حين يُحرّم شيئاً ، فإنه لا يُحرّمه عبثاً ، فقد حرّم كل شيءٍ يدمّر
الإنسان و صحته او يساعد على تدميره .
مثلاً حين حرّم الكحول والمخدرات لم تكن الغاية منع متعةٍ لحظيّة ، لقد منع
إنهياراً طويلاً .
فالمجتمعات التي يقلّ فيها تعاطي هذه السموم تكون أكثر قدرة على العمل ،
التطوّر ، الإنتاج ، و تجنّب الجرائم .
و أيضاً الخنزير واحدٌ من مخلوقات الله عز و جل ، و له وجود في الكون لحكمٍ
كثيرة ، منها أنه يعمل كمنظّف بيئي .
فعندما أمر الله تعالى نبيّه نوحاً عليه السلام ببناء السفينة استعداداً للطوفان
العظيم ، و أمره بحمل زوجين من كل حيوان حتى امتلأت السفينة بالحيوانات ،
بدأت الفضلات تتراكم و الروائح تنتشر ، فدعا نوحُ ربه أن يخلصه من هذه
المشكلة ، ليظهر الخنزير و ينظف السفينة .
و حين مُنع أكل لحم الخنزير ، فذلك لأن الله خلق الخنزير ليأكل فضلات
الحيوانات ، فكيف لنا أن نأكل لحماً مُغذّى بالفضلات ؟!

و قد كشف العلم الحديث أن الخنزير يحمل طفيليات خطيرة و فيروسات تنتقل بسهولة للإنسان لتسبب أمراضاً مثل الدودة الشريطية و الفيروسات المتحوّلة ، لذلك الإسلام منع ليحامي ، لا ليحرم .

أما المرأة التي كثيرٌ من الناس يظن أن الإسلام يقلل من شأنها و ظلمها ، لو أنهم يبحثون في الإسلام أكثر لرؤوا ديناً عززها أكثر من أي دينٍ أو مجتمع ، لقد أعطاهما حقّ الإرث ، حق الملكية ، حق اختيار الزوج ، حقّ التعلّم ، و حفظها بالسّتر ، فالحجاب و اللباس الشرعي ليس قيداً كما يظن الغرب ، هو من يحفظ المرأة من أنياب الذكور .

و المصيبة أن النساء في زماننا هذا يرونه عادة قديمة أو أن ارتداؤه أو خلعه إختلاف آراء ، فتحوّلت الفرائض إلى رأي يمكن تبديله و الإستغناء عنه متى شاءت .

ولا ننسى أن الإسلام كرّم المرأة بالزواج ، فجعل العلاقة بين الرجل والمرأة ميثاق ، فلا يحق لرجل أن يلمسها دون زواج ، و جعل المهر رفعةً لها لتكون مُقدّرةً و مصونة ، و حفظ حقوقها .

بينما المرأة في الغرب تؤخذ للمتعة و يحق له متى ما أراد رميها و استبدالها .

و حين غصت أكثر بالإسلام ، رأيت الإعجاز الحقيقي الذي يجعل أي إنسان يفهم مصداقية هذا الدين ، هو القرآن الكريم.

نزل القرآن الكريم قبل أكثر من 1400 عاماً ، يحمل في آياته معلوماتٍ علمية تم اكتشافها حديثاً .

على سبيل المثال ، اكتشف العلماء أن ما نراه في السماء ليست النجوم نفسها ، و إنما هي مواقعها القديمة ، و السبب وراء ذلك يعود لضوئها الذي يصلنا بعد سنواتٍ ضوئية طويلة .

ذلك ذُكر بقول الله تعالى :

" فلا أقسم بمواقع النجوم "

فالإنسان في ذلك العصر لم يكن يعرف شيئاً عن الفضاء ، لكنها موجودة في القرآن منذ سنين .

و لو بحثت أيضاً في القرآن أكثر لوجدت آيةً في القرآن الكريم تقول :

" مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخٌ لا يبغيان "

تشير هذه الآية إلى وجود معجزة إلهية ، حيث يلتقي بحران (عذب ومالح أو مالح ومالح) مع وجود حاجز غير مرئي يُسمى (البرزخ المائي) ، هذا الحاجز يحافظ على خصائص كل بحر (درجة حرارته ، كثافته الخاصة ، الملوحة) دون أن يطغى أحدهما على الآخر ، و هذا الاكتشاف لم يعرفه البشر إلا بعد تطوّر علوم المحيطات ،

لتكون آيات القرآن الكريم قد سبقت العلم بقرون .

بعد كل هذا شعرتُ و أخيراً أنني وجدتُ الطريق الذي كنتُ أبحث عنه منذ زمن ، الطريق الذي يبدأ بالله ، ويمرّ بك . . .

كنتُ أظنُّ أن كل شيءٍ أحمله في داخلي لك قد انتهى ، إلى أن بدأت افتقدُك ، و أسمع رسائلِك و كأنها كُتبت بصوتك وليس بأناملك .

كانت روعي تتراقص عند سماع رنة هاتفني التي تُعلن اتصالك ، و كنتُ انتظر
رسائلك ومكالماتك كإنتظار السجين المظلوم للحرية .
دقات قلبي في الليل تسابق عقارب الساعة .
قضينا الليالي و نحن نتشارك الأحاديث ، كل ليلة بعد الثانية عشر منتصف الليل
أتفقّ هاتفني ، أو كان هاتفني يتفقّ اتصالك .
نبدأ بالحديث عن يومنا و عن الدراسة و أخبرك ما الذي يزعجني لتحتويه .
كنتُ أهربُ من ضجيج العالم و أختبئ خلف كلماتك .
و مع كل ليلة كنا نتشارك فيها الكلام كنتُ أشعرُ أن المسافة بيني و بينك تضيق
، و أن صوتك يخترق روعي أكثر مما يخترق سمعي .
كنتُ على مقاس قلبي تماماً ، لكنها الدنيا و ما سُميت دُنيا إلا لدنوّها .
لن أستطيع أن أنكر حقيقة أن مكالماتك كانت كالمهدئ بالنسبة لي ، نبدأ المكالمة
بدموعي و ننهيها بضحكاتي المتناثرة في غرفتي .
أتذكر يوم تصاعد الأحداث في سوريا و غزة معاً ، و رعبي الشديد على
صديقاتي في كلا البلدين ؟
بكيت كثيراً في تلك الأيام من شدّة خوفي عليهن ، لكنك بقيت بجانبني ترافقني في
هذه الظروف لتثبت أنك نعمَ السند و الملجأ و أنك اختياري الصحيح وسط هذا
العالم الخاطئ .

في تلك الفترة كان لدي امتحان ، كنتُ على وشك الإنهيار من التعب و الخوف ، و لم أتمكن من الدراسة و التحضير له ، أردتُ إلغائه ، لكنك شجعتني لأكمل ، و شرحت لي المنهج لأنجح و زدت ثقتي بنفسي

شرحت لي المادة بصبر من يخشى علي أكثر مما أخشى على نفسي ، وحين انتهيت من الشرح قلت لي بدفئ : ستتجحين أنا واثقٌ من ذلك .

كانت جملتك كافية لتمسح عن روحي غبار التعب و تعيد تلميعها من جديد .

أدركتُ متأخرة بأن الجدار الذي كنتُ أبنيه حول قلبي منذ زمن ، هُدمَ أمامك بلحظة ، كأنني كنتُ أحاول أن أحمي قلبي من جيش عينيك أو كلماتك ، أو ربما من صوتك الحنون الذي يحفر في القلب مكانه .

و كلها كانت أقوى من مقاومتي ، في الحقيقة أنا لم أكن بحاجة للشرح بقدر حاجتي إليك ، لأدرك أن الامتحان الحقيقي لم يكن في الكتاب ، كان في قلبي .

في اليوم التالي ، استيقظتُ وأنا أشعر أن قلبي أخف ...

كأنك نزعْتَ عنه حملاً لم أكن أعرف أنه يثقلني .

فتحتُ هاتفي دون وعي ، كأن أصابعي تبحث عنك قبل أن أفتح عينيّ تماماً ، أعدتُ قراءة رسائلِك لأستعيد قوتي منها .

ذهبتُ إلى الامتحان وكانت الأسئلة سهلة بعض الشيء ، لكنني لم أكن واثقة بالنجاح .

خرجتُ من القاعة و تفقّدتُ أول شيءٍ هاتفي لأجد رسالةً منك تطمئن فيها عن إمتحاني ، كنت قلقاً كما لو أن هذا الامتحان أُجري لك .

مرّ النهار ببطء ، عددتُ ساعاته بالثانية حتى يحل الليل و تأتي تلك اللحظة التي أختبئ فيها من العالم في بحّات صوتك .

حين رن الهاتف بعد الثانية عشر ككل ليلة ، لم أندش لأنني على يقينٍ بأنك ستتصل ، فما بيننا موعدٌ لا يحتاج إلى إتفاق .

سهرنا في تلك الليلة و أخبرتك عن حبي لكتابة الشعر ، فشجعتني للعودة للكتابة.

أول قصيدةٍ أعادتنني للكتابة كانت عن غزة ، تلك المدينة التي تفيض بالدم و رائحة الموت .

حربٌ لا تشبه الحروب التي قرأنا عنها في كُتب التاريخ ، ولا تلك التي تمرّ على شاشة التلفاز كخبرٍ عابر .

كانت حرباً جرّدت الإنسان من الإنسانية ، و كشفت الشعارات الكاذبة التي يتباهى بها الغرب عن حقوق الإنسان و القانون الدولي المزعوم .

أتذكرُ صديقتي بيسان التي تقطن مدينة غزة و ابنتها جوري ذات الثلاث أعوام ؟ تلك الطفلة التي كانت تعيد ترتيبي بكلماتها المبعثرة ...

حدّثتني بيسان كثيراً عن النزوح و الخيام و طائرة الكواد كابتر التي تمتلك أربع أو ست مراوح ، و تستخدم الكواد في القنص ، وتحمل بندقية أو أكثر، وتعمل بتقنية الاستحواذ على الهدف عبر الصورة عن طريق كاميرا مثبتة فيها ، بحيث تصور الهدف وتتبعه وتمد الجنود بمعلومات دقيقة تعينهم على الاستهداف ،

وليس هذا فحسب ، و إنما تُطلق أصواتاً كأن النساء تبكي و تطلب
المساعدة و أطفالاً يصرخون ليستدرجوا الناس حين يهَمُّوا بالمساعدة ، لتُصبح
المدينةً مسلسل رعبٍ في الليل .

كنت كلما حادثتهما بكيت ، جوري الطفلة الصغيرة التي من المفترض أنها لا
تعي شيئاً ، في إحدى المكالمات حدثتني قائلة : لدي ألعاب الجميلة لكنها دُفنت
تحت ركام منزلنا ، و لدي أرجوحة صغيرة لكنها أيضاً تحطمت في القصف ،
كان لدينا منزلٌ كبير و لي غرفتي التي تسكنها ألعابي ، الخيمة مُتعبة و تأكلني
الحشرات ، أريد أن أعود يا دُبّة ...

اسمي الجميل تحوّل إلى دُبّة بلسان هذه الشقيّة الصغيرة . . .

كانت جوري كوردةٍ جورية ، حنطيّة البشرة وكأنها تحمل دفاء رمال غزة حين
تلامسه حرارة الشمس ، بأهدابٍ تصطف كالجنود حول عينيها الجذابتين ، و
عينانٍ بندقيّتان تُسرق النظر ، و شعرها المُجعّد يتدلى حول وجهها كدوائر
صغيرة تتحرك مع الهواء وكأنها تلعب معه
طفلةٌ تُشبه الفجر رغم دخان الحروب . . .

في مرةٍ من أيام الحرب التي كانت شبكة الإنترنت هشةً كشبكة العنكبوت ، كنتُ
أكلم جوري في الهاتف فسألتني ببغته :

أين انتِ ؟

أنا لا أراكِ ، أريدك معي الآن ، أنا أحبك جداً و اشتقتُ لك .

أجبتها :

وأنا يا جوري اشتقتُ لكِ كثيراً يا صغيرتي

فقلت بعتبٍ كأنه سكينٌ تُغرز في أيسري :

انتِ لم تشتاقِ لي ، لو إنك فعلتِ ذلك لكنتِ رأيتكِ .

لَمْ لا تأتين الآن ؟

تجمدتُ أمام كلماتها

كيف لطفلةٍ بالكاد تُمسك حروفها أن تُمسك قلبي بهذه القوة ؟

كيف لذات الثلاثة أعوامٍ فقط أن تحمل كل هذا الوعي و الحنين ، و كل هذا
الوجع الذي لا يليق إلا بالكبار فقط !

قُلْتُ لها بصوتٍ حاولت أن أجعله متماسكاً رغم رجفة مشاعري :

أنا هنا يا جوري . . . معكِ

لكنها ردّت علي ببراءةٍ موجعة :

لا ، انتِ لستِ هنا

كانت حروفها كصفعةٍ لا تُرى ، لكنها تؤلم .

سمعتُ صوت بيسان المندفع يقول لها :

إنها هنا ، في السماء . . .

حاولت أن أشرح لها بأن المسافات ليست بيدي و أن ما يمنعني عنها هي الحدود ، لكن صوتي أختنق أمام طفولتها التي قُتِلَتْ بالحرب ، فقلتُ لها :

سأتي يوماً ما لرؤيتك ، أعدك يا طفلتي

لتردّ بيسان بصفعةٍ أخرى :

تأتي إلى أين ؟

ألا تعلمين أننا نعيش في خيمةٍ وسط الشوارع ، و المنزل الجميل قد هُدم ؟
كيف لي أن أجيبها بأن ما هُدمَ في حديثنا الآن هو قلبي ؟

ليعلو صوت جوري وهي تقول سوف أحضر لك شوكوميلك حين تأتين

في تلك الليلة اتصلت بي كعادتك و سألتني عن يومي فرويت لك ما حدث
بصوتٍ يرتجف من أثر المكالمة .

كنت تستمع إليّ كما لو أن كل دمةٍ تسقط مني ، تسقط في قلبك أنت ، وكأنك
تخشى أن أختنق بصمتي أكثر مما تخشى أن أختنق ببكائي .

رأيتُ يومها كيف تتحوّل الكلمات إلى ضمادٍ لجروحٍ لا تُر ، و كيف يمكن
لصوتك أن يحتضن روعي و يرمم كسرها .

و لما هدا صوتك في أذني ، و بدأت أستعيد نفسي شيئاً فشيئاً ، عدتُ لحقيقة أنك
لست لي ، لأفهم أن وجعي معك لا يخصني وحدي . . .

ما بين العشق و الوعي

باب

الفصل الثالث

ما لم أكن أراه

ربما كان عليّ أن أمرّ بك لأفهم شيئاً أبعد من الحب ، شيئاً يشبه الحقيقة حين تُكشف دفعة واحدة .

فعندما انتهيتُ من مواجهة نفسي ، اكتشفتُ أن وجعي هذا ليس سوى مرآةٍ لوجعٍ أكبر ، وأن الخديعة التي عشتُها بسبب مشاعري ليست سوى نسخةٍ صغيرة من خديعةٍ تُمارَس على شعوبٍ كاملة .

وهكذا انفتح الباب منك إلى العالم . . .

كلُّ الشعوب يا عزيزي تُخدع فتتعلّم ، وتتعلّم فتتحصّن ، وتتحصّن فتتحرّر .
إلا شعوبنا . . .

تُخدع فتُصدّق ، وتُصدّق فتتشبّث بحدودٍ لم تخرها ، وتدافع عمّن خدعها ،
وتُقسم أن الخديعة واقعٌ لا فكاك منه .

ثم تتسارع بالتصفيق ، وكأنّ التصفيق هو الشيء الوحيد الذي تتقنه .
وكلّما ازدادت الخديعة ، اتّسعت الهوة بين الحقيقة وما يُقال ،

فَتَنْشَأُ أَجْيَالٌ تُرَبَّى عَلَى الْخَوْفِ وَ تُثَلَّقْنَ أَنْ الطَّاعَةَ فَضِيلَةٌ ، وَأَنْ الرِّفْضَ خَطِيئَةٌ وَ
أَنْ النِّجَاةَ فِي أَنْ تُصَفَّقَ ، لَا أَنْ تَفْهَمَ .

شُعُوبٌ تُقْنَعُ نَفْسُهَا أَنْ الْإِحْتِلَالَ قَدْرٌ ، وَأَنْ الْإِنْصِيَاعَ حِمَايَةً ، وَأَنْ الصَّمْتَ حِكْمَةً
، وَ أَنْ الْخَوْفَ ضَرُورَةً لِلْبَقَاءِ .

فَتَدَافِعُ عَنْ قِيُودِهَا كَأَنَّهَا إِرْثٌ مُقَدَّسٌ .

وَ هَكَذَا تُقَيِّدُ الشُّعُوبَ بِأَغْلَالِ الْخَوْفِ وَ الْخُضُوعِ ، لِتُرَحِّبَ بِمَا لَا يَجُوزُ التَّرْحِيبَ
بِهِ .

وَ حِينَ تُطْفَأُ الثَّقَافَةُ وَ يُطْمَسُ الدِّينُ ، تُضَاءُ الْمُنَصَّاتُ ، وَ يُرْفَعُ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ ، وَ
يُدفَنُ صَوْتُ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسْمَعَ .

فَتَتَحَوَّلُ السَّاحَاتُ إِلَى مَسَارِحَ ، وَ الْعُقُولُ إِلَى سُجُنَاءٍ يَجْهَلُونَ أَنَّهُمْ فِي زَنَايِنِ
الْجَهْلِ .

وَ حِينَ تُخَدَّرُ الْعُقُولُ بِالْخَوْفِ ، يَصْبَحُ مِنَ السَّهْلِ اسْتِبْدَالُ الثَّقَافَةِ بِالْتَرْفِيهِ ،

وَ تُطْفَأُ الْكُتُبُ ، لِتُضَاءَ الشَّاشَاتُ وَ الْهَوَاتِفُ ، وَ يُسْتَبَدَلُ السُّؤَالُ بِرَقِصَةٍ ،
وَ الْحَقِيقَةُ بِنَكْتَةٍ ، وَ الْوَجَعُ بِتَفَاهَاتِ حَيَاةٍ أَحَدِ الْيَوْمِيَّةِ .

هَكَذَا يَتَحَوَّلُ الْمَجْتَمَعُ إِلَى جَمْهُورٍ ، وَ الْجَمْهُورُ إِلَى مَتَفَرِّجٍ ، وَ الْمَتَفَرِّجُ إِلَى تَابِعٍ
، وَ التَّابِعُ إِلَى رَقْمٍ فِي صَفِّ طَوِيلٍ مِنَ التَّهَافُتِ الْهَابِطِ

فَلَا يَعُودُ أَحَدٌ يَسْأَلُ :

مَنْ يَكْتُبُ النَّصَّ ؟

وَمَنْ يَحْرِّكُ الْمُمَثِّلِينَ ؟

وَمَنْ يَمْلِكُ الْمَسْرَحَ كُلَّهُ ؟

لِنَعِيشَ كَالدَّمَى دَاخِلَ مَسْرَحِيَّةٍ لَا تَمُتُ لِلْحُرِّيَّةِ بِصِلَةٍ

وَهَكَذَا . . .

تَتَوَارَثُ الْأَجْيَالُ الْخَوْفَ كَمَا تَتَوَارَثُ الْأَسْمَاءُ ، وَتَكْبُرُ وَهِيَ تَظُنُّ أَنَّ النِّجَاةَ فِي
الْإِنْخِنَاءِ ، وَأَنَّ الْوَطَنَ فِكْرَةٌ مُؤَجَّلَةٌ ، وَ أَنَّ الْحُرِّيَّةَ لَا مَكَانَ لَهَا إِلَّا فِي الْغَرْبِ .

يَا عَزِيزِي . . .

بِلَادُنَا مُمَزَّقَةٌ بِحُدُودِ سَايَكْسَ بِيكُو .

لَيْسَ لَأَنَّا نَظُنُّ بِأَنَّنَا أَحْرَارٌ ، بَلْ لِأَنَّ عَقُولَنَا اسْتَعْمِرَتْ .

الْعَرَبُ بَارِعُونَ فِي تَجْمِيلِ مَا لَا يُجَمَّلُ ، يَصْنَعُونَ مِنْ " الْهَزِيمَةِ " بَطُولَةً ، وَ
مِنْ " التَّطْبِيعِ " ضَرُورَةً تُعَرَّفُ عَلَى أَنَّهَا " شَجَاعَةٌ " .

يُلْبَسُونَ " الْخُضُوعَ " ثَوْبَ الْوَاقِعِيَّةِ . . .

وَيُسَمَّوْنَ " الْاِمْتِثَالَ " فَنِّ إِدَارَةِ الْمَصَالِحِ ، ثُمَّ يَقْنَعُونَ أَنْفُسَهُمْ أَنَّ التَّخَلِّيَ عَنِ
الْحَقِّ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الذِّكَاةِ السِّيَاسِي .

وَمَا يُولِمُ لَيْسَ التَّطْبِيعَ نَفْسَهُ ، مَا يُولِمُ حَقًّا هُوَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي نَحَاوِلُ بِهَا تَلْمِيعَهُ ،

فِيُعَالِجُونَ الضَّمِيرَ بِضَمَادٍ كَمَا يُعَالِجُ الْجَرَحَ ، وَ يَعِيدُونَ صِيَاغَةَ الْكَلِمَاتِ ،
فِيُصْبِحُ " الْإِحْتِلَالُ " وَاقِعاً مُرَحِّباً بِهِ ، وَ يَقْدَمُونَهُ عَلَى أَنَّهُ اخْتِرَاعٌ سَيُنْقِذُ الْبِلَادَ
مِنْ نَفْسِهَا .

حَتَّى " التَّخْلِي " يُصْبِحُ سَلاماً ، وَ " الطَّاعَةُ " اسْتِرَاطِيَّةً إداريةً المَرَحَلَةُ .
وَكَانَ اللُّغَةُ خَادِمَةً مَطِيعَةً نَخْتَبِي خَلْفَهَا مِنْ ضَمِيرِنَا النَّائِمِ .

لَكِنِ الزَّمَنُ لَا يَمْحُو الدَّمَ ، بَلْ يَمْحُو الَّذِينَ حَاولُوا تَبْرِيرَهُ ، وَ يُسْقِطُ سِتَارَ الْأَقْنَعَةِ
الَّتِي تَتَخَفَى ، وَ يَكْشِفُ الْوُجُوهَ الَّتِي اعْتَادَتْ وَضْعَ الْخَطَابَاتِ كَمَسَاحِيْقٍ تَجْمِيلِ
لِتُتْرَكَ الْحَقِيقَةُ وَاقِفَةً وَحْدَهَا .

وَلِأَنَّ الْوَعْيَ لَا يُصْنَعُ فِي الْبُيُوتِ فَقَطْ ، تَتَكَلَّفُ الْمُنْصَنَعَاتُ الْكُبْرَى بِصِنَاعَةٍ مَا
تَبْقَى مِنْهُ .

فَالْإِعْلَامُ يَا عَزِيزِي لَا يَعْرِضُ الْحَقِيقَةَ كَمَا هِيَ ، بَلْ يَعْرِضُهَا كَمَا يَرِيدُ لَهَا أَنْ
تُرى .

يَخْتَارُ لَكَ عَدُوَّكَ ، وَيَحَدِّدُ لَكَ غَضَبَكَ ، وَيَصْنَعُ لَكَ بَطْلَكَ ، ثُمَّ يَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ
تَهْتَفَ !

وَهَكَذَا يَتَشَكَّلُ وَعْيٌ زَائِفٌ ، وَهَدَفٌ يَظُنُّ النَّاسُ أَنَّهُمْ اخْتَارُوهُ ، بَيْنَمَا هُوَ الَّذِي
اخْتَارَهُمْ .

لِنَتَعَلَّقَ قُلُوبَ الشُّعُوبِ بِالسُّلْطَةِ كَمَا يَتَعَلَّقُ الطِّفْلُ التَّائِهَ بِيَدٍ غَرِيبَةٍ فِي الشَّارِعِ ،
تَخِيفُهُ وَتَحْمِيهِ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ .

يخافون منها ، ويحتاجون إليها ، ويظنون أن النجاة لا تكون إلا تحت ظلّها ،
حتى لو كان ظلّاً يبتلعه الضوء .

أما الآن فأشعر أنه قد زال الضباب عن عيني حين رأيتُ كيف صُنِعَت الخديعةُ
في عقول الشعب كما صُنِعَت في قلبي
فالخوف واحد سواء كان خوف أمة أو امرأة . . .

وكلما تعمّقتُ في وجع هذا المجتمع ، أجد وجعك يتسرّب من بين السطور ،
كان عينيك تختبئان خلف كل كلمة ،

وتراقبان قلبي من بعيد ، دون أن تقتربان ، و دون أن تختفيان ، لتبقى سجّانَ
حروفي .

ربما لأنك كنتِ أوّل مرّة واجهتُ بها نفسي ، أو لأنك كنتِ الشرارة التي كشفت
لي ظلاماً لم أكن أراه .

كنتُ أظن أن الحبّ هو ما يغيّرنا ، لكنني أدركتُ أن الحقيقة هي التي تفعل ذلك
، وأن بعض الأشخاص يدخلون حياتنا ليضيئوا زاويةً معتمّة كُنّا نخاف النظر
إليها .

أحببتُكَ رغم استحالة هذه العلاقة ، وما يؤلم أكثر أن ما يروّضنا العادات و ليس
الأديان .

العادات التي تُحاكم القلب قبل الفعل ، و تجعل الحلال بعيداً ، والمشاعر جريمة
تُعاقب عليها .

ويا ليت ما يفصلنا الدين ، لكُنَّا نحتسي القهوة معاً الآن و أتحلَّى بسُمرَة ملامحك ، لأن الإسلام لم يأت ليقيّد الإنسان ، لقد جاء ليحرره من كل ما يثقله .

الإسلام ليس سياجاً حول القلب ، بل حماية له من أن يُستنزف في طرقٍ لا تليق به ، ولهذا ، فالإسلام ليس قائمة من الممنوعات كما يصوّره البعض ، إنه نجاة للعقل من الضياع ، و إنقاذاً للقلب من كل ما يمكن أن يؤذيه ، و لأن المشاعر جزءٌ من طبيعة الإنسان ، لم يمنع إسلامنا الحب و إنما توجّه به إلى طريق الحلال ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم :

" لم يُرَ للمتحابّين مثل النكاح "

ليخبرنا النبي أن الحب ليس خطيئة ، انه نعمةٌ حين يُصان ، و رحمةٌ حين تُحاط بالحلال .

يروى أن عمرو بن العاص قد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أي الناس أحب إليك ؟

قال : عائشة

قال : و من الرجال ؟

قال رسولنا الكريم : أبوها

لم يقل أبا بكر بل قال أبوها ليثبت حبّه لها و لأهلها .

النبي لم يوار حبّه و لم يخجل منه يوماً ، جاهر بحبه للعلن .

وكان وفاؤه لخديجة صدقاً آخر عن المشاعر ، حيث ورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

ما غرت على نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، إلا على خديجة وإنني لم أدركها .

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذبح الشاة ، فيقول :

أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة قالت :

فأغضبته يوماً ، فقلت : خديجة !

فقال رسول الله : إنني قد رزقت حبها "

و كان رسول الله يقول لعائشة :

حبي لك كعقدة في حبلٍ لا يستطيع حلّها أحد ، فتضحك ، و كل ما تمرُّ عليه تسأله :

كيف حال العقدة ؟

فيقول : كما هي

هذه الروح الندية هي التي عاشت فيها المرأة المسلمة في عهد النبي كانت تسأل وتعترض وتبيع وتشتري و تذهب إلى المسجد وتشارك في الغزوات حتى ، فمتى تحوّلت إلى ظل لا يُسمع !

يُجرمون الحب العذري الذي لا يملك الإنسان سلطاناً عليه رغم قول رسول الله :

اللهم هذا فعلي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك

فالقلب ليس بيد صاحبه ، وليس ساحة حرب ، ولا آلة تُدار بالأوامر ، وما يقع فيه هو ابتلاءٌ يَهْدُبُ الروح و يختبر الصدق .

فقد نشأنا على الهروب من الضوء حين يكشف ما لا نريد رؤيته .

حين أحببتُك ، لم أكن أعصي الله بك ، كنتُ أعصي العادات

و أواجه مجتمعاً يخاف الحبّ أكثر مما يخاف الحرام ، ويحارب المشاعر أكثر مما يحارب الفساد ، ويُدين القلب قبل أن يُدين الفعل .

لكن الدين كان أرحم من الناس ، وأوسع من العادات ،

الدين لم يجرّم قلبي . . .

الناس هم الذين فعلوا .

هكذا تربّينا . . .

نخاف أن نقول "لا"

نخاف أن نرفض ،

نخاف أن نطالب ،

نخاف أن نرى الحقيقة كما هي .

حتى الحبّ . . .

نعيشه بخوف ، ونتعلّق به بخوف ، و نخسره بخوف ، و كأن الخوف هو اللغة الأم التي ورتناها دون أن نختارها

ولمّا رأيتك تسقط من قلبي ، لم أسقط معك . . .
بل سقطتُ من نفسي .
سقطتُ في الأسئلة التي لم أجروُ على طرحها ،
وفي الحقائق التي كنتُ أهرب منها ،
وفي الوعي الذي لم أكن مستعدةً له .
أدركتُ أنني لم أكن أراك كما أنت ، رأيتك كما احتاجت روعي أن ترى أحداً .
وأدركتُ أنني لم أكن أهرب منك ،
بقدر ما كنتُ أهرب من نفسي التي لم تكن تعرف كيف تحبّ دون أن تنكسر ،
ولا تدري كيف تنكسر دون أن تنهار .
وهنا أدركتُ أن وجعي منك أصبح بوابةً إلى وجعٍ أكبر ،
وصار حبّك درساً في العالم ،
ليصير فراقك بدايةً لوعيٍ لم أكن أبحث عنه .

ما يبقى من الرجل حين يبعث :

أَخلاقٌ لا تغترب

الفصل الرابع

ثبات رجل

سأعترف لك بإعترافٍ صغير . . .

أخاف أن أكتبك ، فنتحوّل اللغة إلى مرآةٍ لا تعكس إلا وجعي ، كمن يضع وجعه على الورق كي لا ينهار داخله .

وأخاف أن لا أكتبك ، فأبقى معلّقةً بيني وبينك .

أنت ارتباك اللغة حين تحاول أن تكونك .

لا أدري إن كنت من عشاق القراءة ، أو إن كانت تستهويك كتاباتي كما تزعم دائماً ، لكنني سأكتب لأحمد ما يشتعل في أجوفي .

أكتب عنك ، علماً أنني لن أحصد منك سوى دهشة الناس و إعجابهم بالقصائد و هذه الرواية . . .

في حقيقة الأمر اتضح لي أنني كلما حاولتُ الابتعاد عنك ، اقتربتُ مني بطريقةٍ لا تشبه المنطق ،

كأن المسافة لا تقتل الحب ، إنها تُعيد تشكيله في داخلي بعمقٍ أكبر .

وهكذا صرتُ استراحة روعي من ضجيج الحياة ، وملجأها من صرامة الوعي ، ذلك الركن الخفي الذي أعود إليه دون تفكير . . .

ليصبح الطريق إليك جزءاً من فطرتي .

والحنين إليك لا يبعدني عن الغربة ، إنه يفتح لي باباً آخر إليها ،

باباً يشبه العودة إلى مكانٍ أعرفه دون أن أراه .
ومن هنا غُرستَ في روحي ،
كملاذٍ ألوذ به حين يشتدّ الصخب .
ربما جعلنا الغربة نبحت عن دفءٍ يُشبه دفء البيوت التي تركناها . . .
في غيابك تحديداً ، أشعر أن قلبي أصبح قطعة سكر مُلقة في ماءٍ ساخن .
وكانك الماء الذي يُذيبني كلما حاولتُ أن أتماسك .
أشتاقك بطريقة تُذيب روحي فتكتمل غربتي بنقصك ،
لأحبّك شوقاً ، و أشتاقك حبّاً ،
فلا أعرف أين ينتهي أحدهما و أين يبدأ الآخر
وكان الحب والحنين صاراً خيطاً واحداً يلتفّ حول قلبي ،
ليشدّه إليك كلما حاولتُ أن أبتعد .
ومن هنا غُرستَ في روحي ،
كانك جذورٌ تمتدّ في داخلي دون إذن ،
تتشبّث بي كلما حاولتُ أن أقتلعك ،
وتنمو في جهاتٍ لا أستطيع الوصول إليها .
وما بين غيابك وغربتي اكتشفتُ أن القلب لا يميّز نوع الفقد ، بل عمقه .

في الغربة يصبح الوطن مرآة مشروخة ، ترى فيها كل شيء مضاعفاً ، وتجعل كل شعور أكبر مما هو عليه .

تشعرُ أن الحنين يتضخم حتى يكاد يبتلعك .

هناك بعيداً عن كل ما اعتدنا عليه نكتشف مثلاً أن الوطنية لا تظهر في الهتاف ولا في الصور ، إنها تظهر في تلك اللحظة التي تكتشف فيها أن الوطن يسكنك أكثر مما كنت تظن ،

وأنتك تحمل ملامحه في صوتك ، في لهجتك ، وفي حنينك ، فيعيش فيك رغم نأي المسافات .

حتى الدين في الوطن قد يكون سلوكاً معتاداً ، أما في الغربة فيتحول إلى وعي ، و إلى يقظةٍ داخلية .

ليس لأن الإنسان يبتعد عن الله ، بل لأنه يصبح أقرب إلى نفسه ، إلى ضعفه ، إلى حاجته ، إلى تلك المساحة التي لا يراها سواه .

الغربة تُجَرِّد الإنسان من الرقابة الاجتماعية ، و تسحبُ منه كل ما كان يجعله مقبولاً ، ليكتشف الإنسان دينه كما لو أنه يراه لأول مرة .

فيكون إما عادةً كانت تُمارَس تحت ضغط المجتمع ، أو يقيناً ينهض وحده حين يسقط كل شيء آخر .

في تلك البلاد يصبح الإيمان قراراً لا روتيناً ،

وتصبح الأخلاق امتحاناً صامتاً وليست قناعاً .

حتى الدين يظهر كقيمة لا كطقس ،

وتظهر الأخلاق كإختيار لا كفعلٍ موروثةٍ ،
وتظهر الوطنية كحنين لا كشعارٍ يُردّد .
إن الغربة لا تُربّي ضعفاء النفوس ، بل تُظهرهم
تكشفهم كما هم ،
وتكشف أيضاً من يثبت ،
ومن يحافظ على ما تربّي عليه رغم كل شيء .
رأيتُ أبناء ديني و قد صاروا غرباء عن دينهم لينسى المسلمون ما تربّوا عليه و
يحلّلون ما حرّمه الله .
ليأكلوا ما لا يؤكل ، و يبرّرون ما كانوا يخلّون منه لتُصبح المصافحة باليد
أمراً واجباً ، وكأن الدين فقط في البلاد العربية وحين نهاجر إلى الغرب يهجرنا
الدين .
نجادل المسلمين ليقتنعوا بما أنزل عليهم ، ونذكّرهم بما كان يجب أن يكون
فطرة ، حتى صار الإيمان فكرة تحتاج إلى مفاوضات بدل أن يكون يقيناً لا
يُنَاقش .
وصار الحق يُقاس بالكثرة ،
لننسى كيفيّة الثبات عليه .

حين تنصح أحداً فيقول : الجميع يفعلها ، توقّف لحظة واسأله : و هل كان

(الجميع) يوماً معياراً للحق ؟

ومنذ متى كان يحتاجُ الحقُّ جمهوراً ليثبت وجوده

منذ متى كانت الكثرة دليلاً على الصواب أو الخطأ ؟!

القرآن يلفت نظرنا إلى حقيقة مهمة أن الكثرة ليست دليلاً على الهداية ، و أنها في الواقع كثيراً ما ارتبطت بالضلال . تأمل كيف تأتي عبارة أكثر الناس في القرآن الكريم ، فكلما وردت عبارة (أكثر الناس) تلتها : (لا يعلمون ، مشركون ، لا يشكرون ، لا يؤمنون)

وكان الله يخبرنا أن الحق لا يُقاس بعدد السائرين فيه و إنما بثبات من اختاره .

ولو بحثنا عن كلمة (أكثرهم) في القرآن الكريم لوجدنا بعدها : (فاسقون ، جاهلون ، خاسرون ، لا يعقلون)

فكن من القلة الذين قال الله عنهم : (وقليلٌ من عبادي الشكور)

لا تتبع التيار لأن طريقه مزدحم ، سر مع الحق و لو كنت وحدك .

فالوحدة مع الحق نجاة ، و الكثرة مع الباطل هلاك .

فالناس تتبع الكثرة لأنها الأسهل ، وليس لأنها الأقوم .

حتى الحجاب ، الذي كان يوماً رمزاً للطهر ، أصبح محل سخرية .

المرأة تتنازل عنه ، والمجتمع يصفق لها

ويقولون : الإيمان في القلب ، و كأن القلب وحده يُحاسب ،

أما باقي الجسد خارج دائرة الطاعة ،
كما لو أن الستر عبء يمكن التخلص منه حين لا يناسب " المظهر " .
أصبح الدِّينُ غريباً بين أهله في مجتمع وُلِدَ من رحمه .
فَيُنْظَرُ للملتزم كأنَّهُ متخلف ، و يُعْتَبَرُ المتحرر إنساناً واعٍ و مثقّف ، فتُسْتَبَدَلُ
الثوابت بأهواءنا .
وتتحوّل بكل بساطةٍ إلى آراء ،
والقيم إلى خيارات ،
والدين إلى وجهة نظر .
لتصبح المتبرّجة هي " المواكبة للتطور " ، و المحجبة هي " الجاهلة "
وكان الدين لم يكن ظاهراً و باطناً معاً .
و ليست المصيبة فقط في أن يخطئ الناس ، وإنما يتحوّلون إلى رُسُلٍ تدعوك
للضلال معهم وكان الثبات جريمة و إلزامك يُشعرهم بأنهم مكشوفين أمام
أنفسهم .
في كل مرة كنتُ أتمسّك بمبادئِي ، كنتُ أشعر أنني الوحيدة التي تسير عكس
التيّار ،
إلى أن رأيْتُكَ
استنتجتُ أننا في الغربة لا نكتشف البلاد . . . بل نكتشف الرجال .

وهكذا انت . . .

لو لم ألتق بك في الغربة لما عرفتُ أن الرجولة تُختَبَرُ بعيداً عن الأوطان .
كنت ترافقني في كل هذا ، كأنك جزءٌ من تلك الهوية التي أحاول أن أتمسك بها
وجزءٌ من ذلك الوطن الذي أحمله معي أينما ذهبت ،
لطالما قلتُ أن الرجل الذي ساعشقه أريده يوسفياً ، عصياً على الرغبة ،
منتصراً بالامتناع لا بالجمال .

ولأن يوسف عليه السلام كان المثال الأعلى في الثبات، كلما رأيتك تذكرته
ولطالما أثرت في قصة زليخة امرأة العزيز حين رأت يوسف عليه السلام و قد
بلغ من الجمال ما لم يُرَ مثله ، شدّها إليه شوقٌ و رغبة ، و حاولت إغواءه فلم
تفلح ، فأغلقت أبواب المنزل عليه وهو وحده معها محاولةً أن توقع به ، لكن
يوسف عليه السلام لم يستجب لها و قال :

(معاذ الله)

على الرغم من أنها امرأة العزيز و قد عشقته إلى أبعد حد .

حتى أنها من شدة عشقها له ، عندما اشتاقت لسماع صوت يوسف الصديق
طلبت من الجلّاد أن يجلده بشدة حتى تتمكن من سماع صوته ، وتطفئ شيئاً من
نار الاشتياق ، ليخف عنها بعض ما يشتعل في صدرها .

فحينها اتفق الجلّاد مع يوسف أن يضرب الأرض ويهمّ هو بالصراخ ، دون أن
يمسّه أذى .

كان الجلّاد كاذباً ويوسف يتوجّع وهماً ، جاءت زليخة وعاقبت الجلّاد لعدم تنفيذ الأمر .

قال لها : سيدتي انا أجده في اليوم خمسون جلدة ، قالت له أنت تكذب .

سألها وكيف علمتي يا سيدتي أنني أكذب ؟

قالت : لأنني لم أشعر بوجع يوسف في قلبي حين كنت تجلده .

فقال له يوسف افعل ما أمرت .

فلما همّ بالجلدة الأولى رفعت صوتها وقالت : ويحك !

أرفع سوطك عن حبيبي فقد قطّعت قلبي .

و رغم كل ذلك لم ينحن لفتنتها ، ولم يبذل ثباته رغبةً ولا إغواء.

كلما رأيته ، تذكرت قصة يوسف عليه السلام ، بتمنّئك ، بثباتك .

ذلك النقاء الذي لا تهزّه رغبة ولا إغواء .

أذكرُ حتى الآن تلك الفتاة التي كانت معنا في الصف .

تلك التي كانت تلاحقك بنظراتٍ لا تخطئها عين ، و تصرفاتٍ يبصرها أيُّ عابرٍ

، وتضحك ضحكاتٍ لا تشبه الفرح ، بقدر ما كانت تحاول لفت انتباهك كما لو

أنك وعدٌ يُنتظر أن يتحقق ،

وتقف قربك كلما سنحت لها الفرصة ،

وتختلق الأحاديث معك كما لو أنها تحاول أن تصنع لنفسها مكاناً في يومك ، أو

في قلبك .

كُنْتُ أراها ، أراها وهي تتقرب ، وأراك وأنت تتجاهل .
وأرى المسافة التي كنتَ تبنيها بينك وبينها دون أن تنطق بكلمة .
لم أكن أغار منها ، كُنْتُ أغار عليك .
على رجولتك التي كانت تبدو لي أكبر من كل محاولاتها .
وعلى هدوئك الذي كان يربكني أكثر مما يربكها .
كُنْتُ أرى في كل تجاهلٍ منك رجولةً لا تحتاج إلى شرح ، وهيبةً لا تحتاج إلى
دفاع ، وقلباً يعرف تماماً أين لا يليق به أن يكون .
لم تنحن لفتنةٍ تُغري الكثيرين في بلادٍ يُتاح بها كل شيء وتُفتح فيها المتاهات
لمن يريد أن يضيع .
كُنْتُ تستطيع استغلال إعجابها بك ، وتترك نفسك تنزلق كما انزلق غيرك ، و
تبرر الخطأ وتزيّن المعصية .
لكنك لم تفعل ، لم يكن الأمر قوةً منك بقدر ما كان خوفاً من الله .
ذلك الخوف الذي يكون أكبر من رغبات الرجل ، وأصدق من كل ما يُعرض
عليه .
و أشهد أنك رجلٌ لا تشتريه الفرص ولا تهزك امرأةٌ تبحث عن ضعفٍ لم تجده
فيك .
أدركتُ أن الرجولة ليست في جمالٍ يُرى ، بل في قلبٍ يخشى الله ، وفي روحٍ
تعرف كيف تنتصر على نفسها قبل أن تنتصر على الآخرين .

ولهذا ، حين وجدتكَ ...
وجدتُ الرجولة التي تمنّيتها فيكَ يا وليد ،
والثبات الذي يطمئن قلبي ،
وكانكَ يا وليدي أصبحت يوسف قلبي الذي لا تغريه الدنيا ،
ولا يلتفت إلا لما يرضي الله .
كنتُ أراك ثابتاً في مكانٍ يتأرجح كل شيء فيه ، وتغضّ بصركَ في شوارع لا
تعرف الحياء ، شوارع يستطيع فيها الرجل أن يخطئ دون أن يراه أحد ،
كنتُ دوماً تختار أن يراك الله ،
وتحفظ لسانكَ في أماكن لا تحفظ شيئاً ، وتعامل الناس بخلقٍ لا ينتظر مقابلاً .
كنتُ رجلاً لا يتغيّر حين تتغيّر البلاد ،
نظيفاً في مدينةٍ تتسخ فيها الأرواح ،
وقريباً من الله في أرضٍ تبعد الناس عنه .
ولأن الغربة تكشف المعادن ، كشفتكَ لي ...
كانت امتحاناً لي قبل أن تكون امتحاناً لك ،
امتحاناً جعلني أرى الفرق بين من يتجمل بالدين ، و من يتجمل به الدين .
كما لو أن الله أراد أن يقول لي :
هذا هو الرجل الذي لا تغيّره المسافات ،

ولا تشتريه فتنة الحياة ، ولا تسرقه الحرية الزائفة .
لدي يقين برجلٍ لو وُضع في قلب العاصفة ل بقي ثابتاً ،
ولو وُضع في قلب الفتنة ل بقي نظيفاً ،
ولو وُضع في قلب الغربة ل بقي قريباً من الله أكثر من كثيرٍ ممن يعيشون بجوار
المساجد .
لأنه لا يحتاج إلى أحدٍ ليشهد له ، يكفيهِ أن الله كان شاهداً عليه .
ولأن الأصالة لا تُعرف بالكلام ، بل بالمواقف ،
يُحكى أن العرب في البادية لم يكن يخدعهم لمعان السيوف ، ولا بهرجة الثياب ،
ولا كثرة الكلام .
كانوا يعرفون أن الأصالة تُختبر بالمواقف .
كانوا يجوعون الخيل ثلاثة أيام ، حتى يشتد بها الجوع وتضطرب أنفاسها .
ثم يضعون أمامها علفاً وفيراً ، وفي الجهة الأخرى يقف صاحبها .
الخيـل الدخيلة ، التي لا أصل لها ، كانت تركض نحو الطعام بلا تردد ، كأنها لم
تعرف صاحباً يوماً .
أما الخيل الأصـيل ، فكانت تقف لحظة ، تتنفس بعمق ، ثم تتجه نحو صاحبها
أولاً ، تشمّ يده ، تلمس كتفه بأنفها ،
وبعد أن تطمئن إليه ، تذهب لتأكل .
هكذا كانوا يعرفون الأصـيل .

فالأصيل لا يبيع وفاءه مهما اشتدّ به الجوع .

ومن هذا العمق وبهذه الفكرة فرّق العرب بين الذكر و الرجل
كانوا يقولون :

الذَّكَرُ يُولَدُ ، أما الرجل فيُصْنَعُ . . .

فالذَّكَرُ قد يملك القوة ، والصوت المرتفع ، والمظهر الجميل ...

و ما إن يُوضع في أرضٍ مفتوحة تُتاح فيها النساء كما تُتاح السلع حتى ينسى
مبادئه .

لكن الرجل هو الذي يملك الوفاء ، والمروءة ، والوقوف عند الشدائد .

الرجل هو الذي لا يبيع أصله عند أول اختبار ، ولا تشتريه المغريات ، ولا
يركض خلف شهواته كما تركض الخيل الدخيلة نحو العلف .

الأصالة تُكشف عند الجوع ، والرجولة تُعرف عند الشدة .

هكذا عرفتُ أنك لست رجلاً عابراً . . .

بل رجلٌ يُرى حين يختفي الجميع .

لهذا السبب كان جرحي لفقدانك مضاعفاً ، لأنني أعني تماماً أنك لن تعوّض .

وكلما حاولتُ أن أبحث عن سبب هذا الفقد ، كنتُ أعود إلى جذوره الأولى .

اكتشفتُ أن ما جرى لنا هو ما يجري لآلافٍ غيرنا ، وأن الخذلان الذي عشناه لم
يكن حادثةً فرديةً ، بل نتيجة تربيةٍ كاملةٍ تعيد إنتاج الخوف جيلاً بعد جيل .

هناك بيوتٌ تُربِّي أبناءها ليكونوا "جَيِّدين" في نظر الناس ، لا في نظر أنفسهم .
بيوتٌ تُعلِّم الطفل أن يعتذر عن رغباته ، وأن يخجل من صوته ، وأن يخاف من
كل خطوة لا تشبه العائلة .

يكبر الابن وهو يظن أن القرار خطيئة ، وأن الاختيار جريمة ،
فيصبح العيب سيِّداً و الحب تابعاً ، و القلب آخر ما يُستشار ، فتكون الرّغبة من
المجتمع أقوى من كل ما يمكن أن ينقذ الإنسان من نفسه .

تربيةٌ تصنع أبناءً بلا ملامح ،

أبناءً يُراد لهم أن يكونوا مرايا تعكس صورة العائلة ، ونسخاً من آبائهم أكثر مما
يكونون نسخاً من أنفسهم .

وكان الأهل لا يعونَ أنّ ما كان يصلح في زمانهم لم يعد يصلح في زماننا
فتراهم غير مدركين أن الزمن قد تغيّر

و يصرّون أن يعيش أبناؤهم الحياة التي عاشوها .

وحين يقف الأبناء أمام مفترق طرق ،

لا يختارون الطريق الذي يريدونه ، بل الطريق الذي يرضي أهلهم .

لأن هناك آباءً يظنون أن الطّاعة تربية ،

وأن كسر الشخصية تهذيب ، وأن إسكات الصوت احترام .

نحن نعيش في مجتمعاتٍ لا يحكم فيها العيب السلوك فقط ،

بل يحكم القلب أيضاً .

فَيُمنَعُ الابنُ من أن يختار حياته ، وَثُمَّنَعُ البنتُ من أن تختار قلبها ،
لأن الإستقلال في تلك البيوت يُسمَّى عقوقاً .
وهكذا يُدفن الحب تحت راية العيب ، وتوَادُ الحياة باسم الخوف ،
فيصبح العيب سجنًا ،
والحب زائرًا لا يجزؤ على الدخول ،
ويكبر جيلٌ كاملٌ يعتذر عن مشاعره .
لتشعر أُنَّكَ محاصرٌ بين حُبِّكَ و رغبات عائلتك .
يقولون أن التاريخ لا يُكرّر نفسه ، لكن القلوب تفعل .
التاريخ مليء بقلوب أحبَّت بصدق... لكنها لم تملك الشجاعة لتحارب .
ومن أشهر تلك القلوب ، قلب ليلي الأخيلىة ، حكاية امرأة وقفت بين الحب
والخوف ، فاختارت الخوف .
أحبَّت الشاعر توبة ، لكنها تركته يرحل لأنها خافت أن تقف بوجه أهلها .
قبل أن أروي لك الحكاية ، عليك أن تعرف أن بعض القصص لا تُروى لتسلية
القلب ، بل لتعليمه .
ليلى الأخيلىة كانت شاعرة عربية قوية الشخصية ،
جميلة اللسان ، وذكية القلب .

توبة كان يقاتل لأجلها ، كان يكتب فيها الشعر ،
ويقف على مضارب قومها ، ويخاطر بحياته ليراها من بعيد .
لكن ليلي رغم حبها له ، لم تستطع أن تقف بوجه أهلها .
كانت تخاف غضب القبيلة ، وتخشى أن تغضب والدها ، فأثرت الصمت .
وصمتها كان أشدّ على توبة من كل الرفض الذي سمعه .
فقال لها في آخر لقاء بينهما :

" إن كان لك في قلبي مكان ... فقاتلي لأجلي كما قاتلت لأجلك ."
لكنها لم تفعل ، فغادر ، وقال أبياته المشهورة التي حفظها العرب :

ولو أن ليلي الأخيلية سلّمت
عليّ ودوني تربة وصفائحُ
لسلّمت تسليم البشاشة أو زقا
إليها صدى من جانب القبر صائحُ
وبعد سنوات ، حين سُئِلت ليلي عنه ، قالت جملة صارت تُروى كحكمة :
" ما زلتُ أحبّه ... لكنه كان رجلاً ، وأنا كنتُ خَوْفاً ."
فالنساء ، مهما اختلفت عصورهن ، يتشابهن في شيء واحد ، ألا وهو الخوف .

وهناك فقط ، أصبح الواقع جلياً أمام عينيّ و أدركتُ أخيراً أن ما بيني وبينك لم ينتهِ لأننا لم نحب ، انتهى لأننا لم نملك الشجاعة لنواجه كل ما كان يقف بيننا .

كنتُ أعرف أن والدي لن يقبل بك ، لأن البيوت التي تربينا فيها لا ترى القلب بقدر ما ترى الهوية ، و كنتُ أعرف أن الطريق إليك لن يكون سهلاً ، وأن كلمة واحدة من أبي قد تُخلق كل الأبواب في وجهي .

ولهذا قلت لك يومها : " والدي سيرفض ... لا تحاول . "

قلْتُها خوفاً ، لا قناعة ، خوفاً من أن يكسرك الرفض وانت رجلٌ لا أريد أن أراه يُكسّر .

قلْتُها وأنا أتمنى في داخلي أن تقول لي : " سأحاول رغم كل شيء " لكنك لم تفعل ، وكان قلبي كان خياراً ثانوياً .

و عندها عرفتُ أن ما خسرتَه لم يكن انت ، بل كانت نفسي التي لم تجد مكاناً بجوارك .

بدأت أفهم أن الحب لا ينتهي دفعةً واحدة وأنه يتآكل بسكونٍ لا ننتبه له إلا حين يصبح متأخراً .

لم يكن للفراق بيننا صوتٌ عالٍ يُسمَع ، كان يتسلل إلى حياتي ببطءٍ محسوب .

المكالمات التي كانت تمتد لساعاتٍ تحولّت إلى دقائق ، ثم إلى مكالماتٍ توجّل ، ثم إلى رسالةٍ تُهمَل تحت راية " الانشغال "

لِيُصْبِحَ وَجُودِي آخِرَ مَا تَتَذَكَّرُهُ فِي يَوْمِكَ ، لَكِنِّي كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ الْإِنْشِغَالَ الْحَقِيقِي لَمْ يَكُنْ فِي الْوَقْتِ بِقَدْرِ مَا كَانَ فِي الْقَلْبِ .

مَرَّةً تَقُولُ إِنَّكَ تَأَخَّرْتَ فِي الْعُودَةِ إِلَى مَنْزِلِكَ وَ عَدْتَ فِي الْفَجْرِ ، وَكَأَنَّ اللَّيْلَ لَمْ يَعِدْ يَخْصِنِي كَمَا كَانَ .

و مَرَّةً تَقُولُ أَنَّ أَصْدِقَاءَكَ بِجَانِبِكَ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْإِجَابَةَ عَلَى مَكَالِمَاتِي ،
و مَرَّةً كُنْتَ مَشْغُولاً لِدَرَجَةِ أَنَّكَ لَمْ تَمْسُكْ هَاتِفَكَ .

كُنْتُ أَقْرَأُ الْإِنْسِحَابَ مِنْ نَبْرَةِ صَوْتِكَ الَّذِي لَمْ يَعِدْ يَحْمِلْنِي وَ فِي الْمَسَافَةِ الَّتِي
بَدَأْتُ تَتَسَّعُ بَيْنَ كَلِمَةٍ وَأُخْرَى ، وَ مِنْ الثَّقَلِ الَّذِي أَشْعُرُ بِهِ فِي الرِّسَائِلِ وَكَأَنَّ كُلَّ
حَرْفٍ يَخْرُجُ مِنْكَ مُجْبِراً ، لَا رَاغِباً .

كُنْتَ تَتَلَاشَى مِنْ يَوْمِي بِهَدْوٍ ، وَكَأَنَّ الرِّحِيلَ يَحْتَاجُ إِلَى لِيَاقَةٍ خَاصَةٍ .

أَرَأَيْتَ كُلَّ هَذَا بِصَمْتٍ أَقْرَبَ إِلَى الْإِحْتِضَارِ وَ أَشَاهِدَ الْمَسَافَةِ تَكْبُرَ بَيْنَنَا وَ أَقْنَعُ
نَفْسِي أَنَّ الْأَمْرَ مَوْقَّتٌ مَعَ أَنَّنِي كُنْتُ أَعْرِفُ فِي دَاخِلِي أَنَّ الشَّرْخَ قَدْ بَدَأَ فِعْلاً وَ
أَنَّ الْحُبَّ بَدَأَ يَتَرَنَّحُ قَبْلَ الْإِنْهِيَارِ ،

وَأَشْعُرُ أَنَّ شَيْئاً مَا يَنْكَسِرُ بِصَمْتٍ ، شَيْئاً لَا يُسْمَعُ ، لَكِنَّهُ يُوجَعُ .

ظُلُوكَ الَّذِي يُشَبِّهه حَدُودَ وَطَنِي

**أَقْسَى الْوَدَاعَاتِ تِلْكَ الَّتِي تَحْدُثُ وَنَحْنُ
نُظَنُّ أَنْنَا مَا زِلْنَا بِخَيْرٍ**

الفصل الخامس

وداعٌ لم يسمعه أحد

أعرف أن اللغة لا تتسع لك . . .

و لكن أريد أن أخبرك أن كل كلماتي نبت لها أصابع وتحاول لمسك .

سأعترف لك بأنني أكتبك ، لأنك حين تغيب تتسع المسافة بيني وبين نفسي ،

ويصير الليل أطول . . .

والقلب أضيق . . .

و أخشى أن أحتفظ بك ، فتصير اللغة سجنًا آخر لا أهرب منه .

حين بدأتُ كتابتك رأيتُ الجُمْل تتساقط مني كما تتساقط أوراق خريفٍ خجولة ،

لأكتشف أنني كنتُ أعيش بك أكثر مما أعيش بنفسي .

كنتُ أكتبُ لأطمئن أنني مازلتُ أملك شيئاً منك ، ولو كان مجرد ظلٍ يتكرر بين

السطور ، فلا شيء يثبت أنني أحبك غير الكتابة .

قد تظن بأنني كثيرة البوح ، أثرثر لأملأ الفراغ ، لكن في الحقيقة الذين يكتبون

لا يثقون بسهولة ، و إنما يخبنون أثقل ما في قلوبهم بين جملةٍ و أخرى و مع

الوقت أدركتُ أنني لا أكتبك فقط ، بل أنتسبتُ بك كما يتسببُ الغريق بآخر نفس

، و أحاول أن أبقىك حياً في الورق حين يعجز الواقع عن الاحتفاظ بك .

صرتُ أخاف أن أتوقف عن الكتابة ،

لأن الصمت بعدك يشبه حفرة بلا قاع ، وأخاف أن أستمّر ، لأن كل جملة
تفضح كم أنني فقدت نفسي فيك أكثر مما فقدتك أنت ، إلى أن صرْتُ أبحثُ عني
فلا أجد إلا ظُلك .

ولم أعد أعرف هل أكتبك لأتجاوزك ؟

أم أكتبك لأبقىك ؟

أم لأنني ببساطة لا أعرف كيف أعيش خارج حدودك ؟!

في نهاية المطاف استنتجتُ أن قلبي كلّما حاول أن يصفك عاد إلي خائباً .

فالقلب حين يتعلق بمن يحبه ، يصبح أثقل من الحديد ، والخطى تتباطأ ، لأن
وجع الفقد يسكن الروح ، ويجعل كل خطوة نحيباً صامتاً .

لا أعلم ما السر الذي جعلني أهيّم بك هكذا ولا لماذا يزداد قلبي إنتماءً لك كلما
حاولت أن تبتعد عني .

كل ما أيقنه أن ذكراك طقسٌ يكتمل يومي به .

كانت الطرقات تنبض بالطمأنينة حين يمر طيفك فيها

اليوم و بعد الغياب هذا ، أدركت كيف تصبح الأيام بلا دفء و تتحول الأماكن
إلى غربة بعد أن كانت أنس .

أتذكر لقاءنا الأخير ؟

عند النهر . . .

كانت الساعة تقارب الواحدة ظهراً بتوقيت الشوق ،

كان الجو هادئاً بعكس ما يختلج في صدري .

و خيوط الشمس كانت تداعب مياه النهر فتعكس نورها عليه كما يعكس حُبَّكَ
على وجهي لأضيء .

و الماء يجري بهدوء ، كما يجري الحنين بفؤادي

و كأنّ النهر يعرف أنه يشهد وداعاً لا يُقال .

كنت آنذاك من طلب رؤيتك دون سببٍ واضح

لم أكن على يقينٍ من مجيئك ، لكنك كما عهدتك ، لم تخذلني

و جئت رغم أنك لم تنم كل الليل ، و كُنت مرهقاً بما يكفي لترفض ، و هذا
الشيء الوحيد الذي لا يترك في روعي مساحةً للشك ، لأنني أعرف تماماً أنني
حين أحتاج وجودك ستكون هناك .

كان حضورك وعدّ قديم لا يخلف مواعده .

أتيت نحوي بسيارتك و ترجّلت منها .

خطوتُ نحوك بخطواتٍ لا أعرف إن كانت تمشي بي ، أم ما بي يمشي إليها .

وَحِينَ التَّقْتُ عَيْنَايَ بِعَيْنِيكَ ، شَعَرْتُ بِأَنْ شَيْئاً خَفِيفاً انْزَاحَ مِنْ صَدْرِي ، وَشَيْئاً
أَثْقَلَ اسْتَقَرَّ فِي قَلْبِي .

ابْتِسَامَتُكَ الْأُولَى كَانَتْ كَأَنَّهَا جُمْلَةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ الطَّمَانِينَةِ ، مَهْدَةٌ لِلرُّوحِ حَتَّى لَوْ
كَنتُ فِي وَسْطِ الْحُرُوبِ .

وَاللَّمْعَةُ فِي عَيْنِيكَ كَانَتْ تُخَفِّتُ مِنْ حَوْلِي كُلَّ شَيْءٍ .

جَلَسْنَا دَقَائِقَ قَلِيلَةً ، تَبَادَلْنَا أَطْرَافَ الْحَدِيثِ ، وَتَقَاسَمْنَا الضَّحَكَاتِ ، ضَحَكَاتٌ
قَصِيرَةٌ ،

لَكِنَّا كَانَتْ تَحْمِلُ كُلُّ مَا لَمْ نَسْتَطِعْ قَوْلَهُ .

كُنْتُ كَمَا الْمَعْتَادُ ، وَاقِفاً بِهَيْبَتِكَ الَّتِي تَعْرِفُ كَيْفَ تُؤَلِّفُ الْأَعْيْنَ عَلَيْهَا ،
وَبِنَظَرَاتِكَ الَّتِي تَرَى كُلَّ شَيْءٍ إِلَّايَ .

تَنْتَظِرُ نَحْوَ النِّهَرِ وَ أَنَا خَلْفَكَ أَنْظُرُ إِلَيْكَ لَعَلِّي أَطْفِئُ شَيْئاً مِنَ الْحَنِينِ الْمَلْتَهَبِ
بِدَاخِلِي .

ثُمَّ غَادَرَ كُلُّ مَنْ يَجُرُّ قَلْبَهُ وَرَاءَهُ .

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، لَمْ يَتَغَيَّرِ الْعَالَمُ ، لَكِنِّي تَغَيَّرْتُ .

رَأَيْتُ كَيْفَ لُضُوءُ الشَّمْسِ أَنْ يَحْمِلَ دَفْئاً أَكْبَرَ ، وَ الْأَرْضُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ تَحْدِيداً
تَلِينُ تَحْتَ قَدَمِيَّ وَ كَأَنَّهَا تَعْرِفُ أَنَّيَ أَحْبَبْتُ .

حَتَّى الضَّجِيجِ تَغَيَّرَ ، صَرْتُ أَسْمَعُهُ بِصَوْتِكَ وَ اسْتَلَذُّ بِهِ .

كَمَا لَوْ أَنَّكَ أَضَاءَتْ مُصْبَاحاً خَفِيفاً فِي صَدْرِي لِيُنِيرَ كُلَّ مَا حَوْلِي .

التقينا . . .

ليصبح كل ما بعد لقاءك ناقصاً

و كل ما بعدك يُشبهك

لتحوّل كل صمتٍ إلى صوتك

و أصبحت كل لحظةٍ قبلك انتظارٌ لا يُسمى و حنيناً يجرّ رُوحِي إليك

و افترقنا . . .

و كان الفراق صامتاً يشبه اللقاء حين يختنق بالشوق .

فراقٌ بلا إعلان و كأننا اتفقنا على الرحيل دون أن نتلفّظ به .

حتى الأماكن ما عادت أماكن ، صارت فراغاً لا يكتمل إلا بك .

حين يغيبُ أهم شخصٍ في حياتك عن الأماكن والطرق يا عزيزي ،

كل شيءٍ يكتسي ثوب الغربة ، حتى الجغرافيا تتغير .

أعلم أننا لم نقل وداعاً ، لكن الأرواح تراجعت بخفّةٍ .

بعد ذلك اللقاء انقطع الوصل بيننا وكأنه كان خيطاً رفيعاً .

لم يحدث شيءٌ عظيم ولم تُكتب الكلمة الأخيرة .

كان يكفيني تجاهلك ليكون الزمن بين الرسالة والأخرى يكفي لكتابة رواية !

صمتٌ امتد بيننا حتى صار جداراً ، و بروّذ في الكلمات وكأن حروفك ارتدت

طقس البلاد هنا .

تجاهلك يوجع أكثر من الوداع و كأن الزمن بين الرسائل أصبح امتحاناً للصبر
و للقلب معاً .

وهكذا دُفِنَ ما بيننا ليكون وهماً مرّ في حنايا روحي .

بعد أكثر من شهر وصلتني رسالة منك لتخبرني عن إتمامك لامتحانات اللغة
ونجاحك بجميعها ، ثم عُدنا نتواصل وكأننا عابرين التقيا صدفةً في الطريق
وعلى أحدهما النزول في محطةٍ ما ، تواصلٌ يشبه لقاء عابرين بلا جذور ، بلا
دفع .

بعد مرور أكثر من عام . . .

ها أنا الآن أشعر أنني وصلتُ إلى المنتصف المميت في الحكاية ، تلك المنطقة
الرمادية التي لا هي بداية ولا نهاية ، فقط استنزاف ،
كأنني أسير على نصلٍ سيف .

نقطةٌ لا يمكن الرجوع بعدها ، يصبحُ فيها الاستمرار استنزافاً و التراجع خسارةً
أخرى

و أنا بينهما . . .

أحمل قلبي كمن يحمل شيئاً قابلاً للكسر ولا يدري أين يضعه

وكانك حين عدت ، لم تعد إلي ، عدت فقط إلى مساحةٍ فارغةٍ تركتها باسمك ،
لكنها كانت كافية لتجعلني أتورط من جديد .

كنتُ أراقب كلماتك المتجمدة و أحاول أن أدفئها بقلبي ، لكن البرودة كانت أقوى
مثل شتاءٍ لا ينتهي حتى لو أشعلت قلبي موقداً .

تركت في داخلي ذكرى حضورٍ كان ثابتاً كجذرٍ متأصلٍ في الأرض ، و غياباً
كعاصفة ، يقتلع كل شيء دون أن يلتفت .
تمنيتُ لو أنك حاولتَ لأجلي ، أن تعاندَ القدر كما يعاندُ الغصنُ الريح ، وأن تقف
في وجه العالم كما وقفتُ أنا في وجه قلبي .
لكنَّ انسحابك جاء هادئاً ، هادئاً كخيانهٍ لا ترفع صوتها ،
كبابٍ يُغلق ببطءٍ كي لا يسمعه أحد ، أو كمن يطفئ الضوء ويترك الروح تتلَمَّس
الجدران بيدٍ مرتجفة .
انسحبتَ كما ينسحب الجبان من معركةٍ لم تبدأ ، و كأنك خفتَ أن تخسر شيئاً لم
تكن تنوي حمايته أصلاً .
كنتُ أريدك أن تتمسَّك بي ، لكنَّك اخترتَ أن تتمسَّك بالغياب .
الله لم يسقط التمر لمريم بل أمرها أن تهز جذع النخلة ، ولم يزل البحر لموسى
بل أمره أن يضرب بعصاه .
الله لم يعدنا بحياة سهلة لكنه وعدنا أن يكون معنا في كل ضيق وأن السعي مع
التوكل طريق الفرج ، وانت لم تسع لي .
وما يؤلمني ليس أنك رحلت ، بل أنك رحلتَ بسهولةٍ لا تليق بكل هذا الوجد .
اخترتَ الصمت ، و الصمت يا عزيزي أقسى من الرفض ، و أقسى من الفراق
، وأقسى من كل ما يمكن أن يُقال .
انسحابك لم يكن نهاية ، كان إعلاناً بأنني كنتُ وحدي منذ البداية .
كأنني لم أكن شيئاً يستحق حتى معركة صغيرة .

رحيلك لم يكن قراراً ، كان استسلاماً ،

وكان أشبه بصفعة لا تُسمع ، لكنها تُسقط كل ما بُني في الداخل .

وحين افترقنا . . .

لم أحمل معي شيئاً سوى ذكرى ، ذكرى رجلٍ مرّ في حياتي وترك في قلبي

فصلاً لا يُغلق . . .

ذهبتُ إلى المكان الذي جمعني بك ، كأني أعود إلى جرحي الذي أعرف أنه لن
يلتئم ، و رغم ذلك أثر على لمسه .

كانت الساعة الواحدة بذات التوقيت الذي تقابلنا به .

السماء الداكنة كانت تبكي فتغسل دموعي وكأنها تمسح حزني عن وجنتي .

وقفتُ تحت الشرفة التي كانت تطل على النهر ذاتها ، و استندت على الحائط
الذي لامسته يداك ، ذاك الذي احتفظ بآثارك .

كان بارداً كأنه لم يُدْفَأ منذ رحيلك ، وكأنه يرفض أن يمنح أحداً بعدك دفئه .

مررتُ أصابعي على حوافه ، شعرتُ بوخزٍ خفيف ، لا أدري إن كان الوخز في
أصابعي أم في قلبي ، أو ربما في عيني .

أمّا النهر فما زال يجري ببطء ، مياهه معتمة ،

كأنها تحمل في أعماقها أشواقاً لك .

كنتُ أراقب تموّجه و أفكر كيف يشبه قلبك ، يتقلب بغموضٍ لا يعلم أحدٌ ما
يخفي في أعماقه .

أما الكنيسة فمازالت شامخة ، أجراسها تدق و كأنها تعلن عن بدء ساعة الحنين ، لتشارك السماء حدادها .

لساعات البرد كانت تضرب وجهي و تخترق معطفي ، وتصل إلى صدري مباشرة ، إلى المكان الذي يضجّ بغيابك ، لتشعل لهيبه أكثر.

شعرتُ أن قلبي ينكمش ، و طعنات الشوق تتكاثر ، حتى بدأت أنفاسي تتباطأ .
جلستُ على الدرجة التي كنت واقفاً عليها ،

بكيت كثيراً كما لو أنني لم أبكِ من قبل .

نظرتُ لكل ما حولي فوجدتُ الأشياء ثابتة و وحدك الغائب .

أدركتُ أنني لم آتِ لأذكرك ، لأنني لم أنسك حتى الآن.

وقفتُ هناك طويلاً ، أراقب النهر وهو يبتلع حبات المطر و تمنيتُ لو أنه يبتلعني .

أسمعُ أجراس الكنيسة تتردد في صدري وكأنها تحصي عدد المرات التي تمناك بها قلبي .

كل شيءٍ بدى ثابتاً ، عدا قلبي كان يتلوى كغصنٍ تضربه الريح

لكن الحقيقة كانت أقسى من كل هذا:

أنني أقف في المكان ذاته،

في اللحظة ذاتها،

بين الذكريات ذاتها،

ولا شيء يعود ...

لا أنت ،

ولا أنا التي كنتُها معك .

رفعتُ رأسي إلى السماء ،

وتركتُ المطر يغسل وجهي ،

كأنني أسمح له أن يمحو أثرك ،

أن يخفّف وطأة الغياب،

أن يعلمني كيف أتنفّس دون أن يختنق صدري باسمك.

وحين غبتَ ، لم أفقدك وحدك ، بل فقدتُ وطناً آخر ،

وطناً لم تمنحه لي الخرائط ، بل منحته لي نظرتُك الأولى .

أحتاج أن نعيد لقاءً من لقاءاتنا .

تتملكني الرغبة حقاً في أن نجلس سوياً عند ضفة النهر أثناء هطول المطر ،

وتنسب قطراته بخفة كأنها تغسل الغياب العالق في الروح ، و الهواء البارد

يترك مساحة للتنفس من جديد ، أجلس بجانبك، لأتأكد أن قلبي لم يخطئ حين

ارتجف لأجلك ، فأخبرك بما أرهقني و أطفأ روحي ، و تخبرني بصوت مطمئن

أنك مازلت معي ، و أننا سنتجاوز الأمر سوياً مهما اشتدت الظروف و تعرّجت

الطرق

ظُلُّكَ الَّذِي يُشْبِهُ حَدُودَ وَطَنِي

أريدك أمامي دون حاجتي للمبررات ، بلا قصصٍ معلّبةٍ أختبئ خلفها ، أو لحكاياتٍ جاهزة .

أريد حضورك كما هو ، طاغياً علي ، يبعثرني بنصفِ ابتسامة .

أحتاجك لثربكني كما تفعل دائماً .

غيابك علمني قسوة العالم من حولي حين لا تكون ملامحك الجميلة فيه .

يرادوني سؤالٌ دائماً لا يهدأ :

هل جربتَ أن يكون لك وطنٌ يسكن في عينيك لكنك لا تملك حق اللجوء إليه ، وطنٌ لا يفتح لك حدوده ، تعرفه أكثر مما يعرفك ،

وتشتاق إليه أكثر مما يفتقدك ؟

هل جربت أن تحرس حلماً لا يريد أن يتحقق ؟

أن تقف على عتبه كل ليلة ، تحمل قلبك كجواز سفر منتهي الصلاحية ، وتنتظر معجزة لا تأتي ؟

و مع ذلك لا يعرفك إلا كعابر شوق !

هل جربت أن يكون الحنين أثقل من الغياب ؟

أن تنام على طيف وجهه و تستيقظ على منبه الذاكرة ، و مع ذلك لا يفتح لك بابه !

وطنٌ تخفيه بين السطور خشية أن يفضحك الشوق ، لأنك لا تملك شجاعة البوح ، ولا تملك رفاهية النسيان .

ثم يعصف الفقد بك دفعةً واحدة لتنتهار عاصمة الثبات بداخلك ، كما لو أن أحدهم أطفأ أنوار المدينة كاملة .

غياب من نحب ليس موقفاً عابراً ، بل زلزالٌ صغيرٌ يمر بالروح ، ليكشف هشاشتنا مهما ادّعينا القوة .

فالفقد هو أن ينسحب شخصٌ واحدٌ من حياتك ، فيختلّ كل شيء فيك ، حتى لو بدا العالم من حولك ثابتاً كما هو .

و حين يطرق الفقد الباب ، يتعرّى الإنسان من صلابته ، فالقوة لا تنفع أمام الفقد ، و لا أحد يبقى قوياً في حضرة وجوده ، فهناك غيابٌ يجعل أقوى الرجال ينحنون لشدة ما أخذ منهم

عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ،

اقتلع باب خبير بيدٍ واحدة ، دون أن يستند إلى أحد .

لكن حين حمل جنازة فاطمة ، رضي الله عنها ، قال :

" أعينوني "

فالقلب حين يتعلق بمن يحبه يصبح أثقل من أي شيء .

فما أثقل الفقد حين يعصر القلب ، فالإنسان لا يدرك قيمة ما يملك إلا حين يفلت من يده و لا يشعر بقدر النعمة إلا عندما تختفي .

لا أدري إن كنت ستذكرني بعد غيابي الذي اخترته متعمداً بيديك أو إن كان مروري في حياتك سيبقى مجرد ظلٍ خفيف لا يترك أثراً على جدرانك .

لكنك الحقيقة الوحيدة في حياتي التي لن يغطيها غبار الزمن .

لقد تقدّم لخطبتي كثيرون ،

وتزاحمت حولي الوجوه التي تحاول أن تجد لها مسكناً في حياتي .

فأحدهم يزور المحل الذي أعمل فيه مراراً ،

كان خطواته تبحث عن كلمةٍ مني لن أنطق بها ،

وأخر يتردد نحو منزلنا ،

يحاول أن يقترب من بابٍ لا يُفتح له .

وغيرهم من أرسل مع صديقتي رغبةً صريحة في الزواج بي ،

وكثيرون يرسلون إليّ عبارات حبٍّ باهتة .

كلمات تتساقط عليّ كأوراقٍ لا حياة فيها .

لكن كل تلك الوجوه كانت تمرّ أمامي كأنها بلا ملامح ، و كل هذا الزحام من

الإهتمام الذي ينصب فوقِي ، لا أرى أحداً منهم .

يمرّون أمامي كظلٍّ عابر ،

كضبابٍ لا يترك أثراً في القلب .

ولا ينعكسُ في عينيّ سوى طيفك .

لأن القلب الذي يُخلق بابه على اسمٍ واحد ، لا يُفتح لغيره مهما ازدحمت الطرق

إليه .

كَأَنَّكَ الْوَضُوحَ كُلَّهُ ، وَ الْبَاقُونَ غَبَاشٌ لَا مَعْنَى لَهُ .

حَسَنًا سَأُخْبِرُكَ عَنْكَ . . .

أَنْتَ الْغَرِيبُ الْقَرِيبُ ، الْقَرِيبُ الَّذِي لَا يَقْتَرِبُ ، الَّذِي يَمُرُّ بِجَانِبِي وَلَا يَرَانِي ، وَ الْبَعِيدُ الَّذِي يَسْكُنُ أَجُوفِي .

كَتَبْتُ لَكَ الْعَدِيدَ مِنَ الْقَصَائِدِ لَعَلَّهَا تُعِيدُكَ لِي وَ لَمْ تَنْجَحْ بِاسْتِعَادَتِكَ ،

لِذَلِكَ كَتَبْتُ لَكَ هَذِهِ الرِّوَايَةَ لَعَلَّهَا تُحَرِّكُ فِيكَ شَيْئًا نَائِمًا .

بَعْضُ الْعِلَاقَاتِ لَا تَنْتَهِي ، لِأَنَّهَا لَمْ تَبْدَأْ حَقًّا ، كَعِلَاقَتِي بِكَ ،

تَأْتِي لِتُعَلِّمَنَا دَرْسًا قَاسِيًّا كَيْفَ لَا نَسْمَحُ لِقُلُوبِنَا أَنْ تَتَعَلَّقَ فِي انْتِظَارٍ مِنْ لَا يَنْتَظِرُنَا

أَذْكُرُ جَيِّدًا فِي لَيْلَةٍ قَلْتُ لِي بَعْدَ أَحَدِ لِقَاءَاتِنَا :

الْأَسْوَدُ يَلِيقُ بِكَ

لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ أَنَّ رُوحِي سَوْفَ تَكْتَسِيهِ بَعْدُكَ .

وَلِأَنَّ الْقُلُوبَ لَا تَخْطِئُ إِشَارَاتَهَا ، اعْتَقَدْتُ أَنَّ كُلَّ مَا فَعَلْتَهُ كَانَ طَرِيقًا يَقُودُكَ إِلَيَّ .

كَنتَ تَفْعَلُ كُلَّ مَا يَفْعَلُهُ الْمَحْبَبُونَ :

تَخَافُ عَلَيَّ ، وَ تَفْتَقِدُنِي وَ تُرْمِمُ كَسْرِي قَبْلَ أَنْ أَطْلُبَ ، وَ تُصْلِحُ مَزَاجِي بِكَلِمَةٍ ، وَ تُطْفِئُ غَضَبِي بِإِيْتِسَامَةٍ ، وَ تَهْتَمُّ لِتَفَاصِيلِي ، وَ تَقْرَأُ الْحَزْنَ فِي كَلِمَاتِي قَبْلَ أَنْ أَنْطِقَ بِهَا ، وَ تَدَاوِيهَا ، كَأَنَّكَ تَخْشَى أَنْ تَتْرَكَنِي وَحِيدَةً مَعَ الْحَزَنِ لِحِظَةٍ وَاحِدَةٍ .

كل شيءٍ فيك كان يقول أحبك إلا صوتك .

كنتُ أصدّق تلك الإشارات و أجمعها كأنها اعترافات صامتة و أبني عليها
أحلاماً لأعيش بنصف كلمة و عشرات المواقف .

إن كل ما فعلته لي كان يكفيني لأحبك عمراً كاملاً دون أن تنطق بحرف.

و رغم كل هذا . . .

أحاول أن أتجاوزك و أنسى

لكن ، ماذا سوف أنسى ؟

هل أنسى تلك الدمعة السجينة في عيني ، التي تخلّت عن جفني وأنا في الشارع
أحاول حبسها ، لكنها لم تُحبس ؟

أم أنسى الغصّة العالقة في حلقي ، التي كلما حاولتُ ابتلاعها اشتدت حول
حنجرتي أكثر لتحاول خنقي ، حتى نجحت في خنق الصوت داخلي ، وتركتني
صامتة بلا لسان؟

ما رأيك في وجهي الباهت الذي يحاول أن يتصنّع السعادة ،

فيبتسم للمارّة كأن شيئاً لم يحدث ، بينما ما في داخلي جبالٌ تنهارُ بصمتٍ قاتل
لن يسمع أنينه أحد .

ولا حتى انت . . .

أم أنسى روعي التي كانت تزحف على ركبتيها وهي تحاول النجاة من رصاص
الشوق ؟

هل تستطيع الوسادة أن تنسى دموعي التي أغرقتها في الليالي التي ينام فيها الناس فلا ينام قلبي ؟

أظل أراقب السقف كأنني أبحث عن ملامحك فيه فلا أجد سوى الفراغ . . .

هل سأستطيع أن أنسى ارتجافة يدي حين كنتُ أكتب رسالة ، ثم أمسحها قبل أن تراها لأنني أدرك أن كلماتي عبءٌ ثَقِيلٌ على قلبك ؟

علمني كيف يُنسى ما عاش في القلب

كيف يمكن لقلبي الصغير أن ينهض من تحت ركام الذكريات دون أن يستند عليك .

علمني كيف يمكنني أن أعيش ببقايا قلبٍ لا ينتسب إلا لاسمك .

ومع ذلك ، أعرف تماماً أن حضوري ليس عادياً ، و أن دخولي في حياة أحد ليس تفصيلاً يمكن تجاوزه ، انه يرفع سقف الأشياء كلها و يغير المقاييس .

أنا المرأة التي تعرف أن قيمتها لا تُقاس بالغياب ، لم أكن يوماً نصف حضور ، و أن حضوري يترك أثراً لا يبهت ، و يبقى عالقاً حتى بعد أن أغادر . . .

حين أحب ، أحب بصدق لا يعرف الإلتواء ولا اترك مساحة للشك ، أحببتُ بكامل قوتي ، بطريقة تعيد تعريف الحب من جديد .

و حين أرحل ، أترك خلفي مجرّاتٍ من الأثر ، و فراغاً لا تملؤه نساء الأرض ، و صدى وجودي يبقى حياً في القلوب ، لأن وجودي لم يكن يوماً عابراً ، بل علامةً فارقة .

أنا لا أنسى لأنني لم أكن يوماً ظلاً من امرأة أخرى، أنا الأصل ، و النسخة التي لن تتكرر .

ستحملني في ذاكرتك لأن القدر لن يمنحك امرأة تشبه صدقي أو تمنحك عمق مشاعري .

ستحاول يا وليدي أن تُقنع نفسك بأن قلبك قادرٌ على البدء من جديد ،

وأن غيري ستعطيك ما كنتُ أملكك إياه - قلبي -

لكن الحقيقة ستقفُ أمامك يوماً ما .

حتى و إن أحببتَ أخرى ، ستكتشف أن الحب الذي أعطيتك إياه لن يُعاد لأنه ليس نسخة قابلة للتكرار ، و ستتذكرني لأنني الجزء الذي لن يستطيع أحدٌ أن يأخذ مكانه .

وأن مكاني في حياتك ليس مقعداً يمكن استبداله .

ستبحث عني في تفاصيلها ، في كلماتها ، في دفنها ، و ستعرف أن مشاعري لا تُستنسخ ، وأن امرأة مثلي لا تأتي مرتين .

سيأتي يومٌ تبحثُ فيه عني و تمد يدك نحو الفراغ ولا تجدني .

تفتش في الطرقات بعينيك البندقيتين عن أثري كما لو أن قلبي سقط منك دون أن تنتبه .

حينها سأكون قد مضيت إلى حيث لا يصل صوتك و ستدرك بعد فوات العمر أن الفرصة التي أضعتها كانت الفرصة الوحيدة لتجدني .

كنتُ أتمنى أن أشاركك تفاصيل يومك الصغيرة التي لن تهم أحداً سواي ، أن أعرف كيف كان مزاجك في الصباح ، وما الذي أتعب رأسك و رسم عُقدة حاجبيك في منتصف النهار ، وما الذي جعلك تبتسم دون سببٍ واضح في لحظة شرود .

تمنيت أن أكون الصوت الذي يُنسيك ألمك ، و الكتف الذي تستند إليه حين يثقل العالم فوق صدرك .

أن أكون قريبة بما يكفي لألتقط تعبك قبل أن يسقط في قلبك .

كنت أحلم أن أرتب لك فوضاك ، أن تستيقظ على صوتي حين أسالك :

كيف تحب أن تحتسي القهوة ، هل ستفضلها معي ؟

أم مع نفسك في حديقة منزلنا الذي لم يُكتب لنا ؟

أما أنا ، يكفيني أن أحتسي صباحي بنظرةٍ من عينيك البنيتين اللتين تغنياني عن ألف كوبٍ من القهوة .

كنت أريد أن أختار معك قميصك المفضل ، و أن أسمعك تحدثني عن خططك المستقبلية التي لم تخبر بها أحداً .

تلك التفاصيل الصغيرة التي لا يلتفت إليها الناس لكنها تبني بين قلوبنا وطناً صغيراً .

كنتُ أتوقُّ لأن أبني معك هذا الوطن الصغير ، لكنّه احتلَّ بكيان النصيب .

غير أن كل ذلك بقي احتمالاً موجلاً ينتظرُ حياةً لم تُفتح له ،

و حلمًا ظلّ واقفًا على العتبة .
سأصارحك بشيء ربما تجهله :
أنا بانتظار خطوة منك كي أنجو و أخطو نحوك ألف ميل .
رغم أنني على يقينٍ بأنك لن تأتي ولو بمقدار صدفة ، إلا أن كل شيء في حياتي
ما زال ينتظرك .
سألتني يوماً في إحدى محادثاتنا
" لماذا اخترتني أنا ؟ "
ترددت للحظة قبل أن أجيب ، فقلتُ بهدوء و يقين ، كيقيني بك :
لأنني لم أشعر في حياتي بشيءٍ أصدق منك
لم أخترك لأنك الأجمل ، رغم جمالك الذي يُسحر أي فتاة
لكننا في بلدٍ أوروبي ، فلو أنني سأختار من أحب بسبب جماله لتزوجت أوروبياً
وانتهى الأمر .
ولم أخترك لأنك خيارى الوحيد ، لأنك تعلم تراحم من حولي جيداً ، و لا لأنك
الخيار المنطقي .
اخترتك لأنك كنت الحقيقة الوحيدة في عالمٍ يمتلئ بالوجوه الكاذبة ، والكلمات
المزيفة .
لأن قلبي حين مرّ بك ، رأى نقاءك ، نُبلك .

كنت الإنسان الوحيد الذي لم يتصنّع لي جذبني ، ولم يحاول أن يكون غير الذي هو عليه .

اخترتك لأنك اليد التي تُمسك بي حين أسقط حتى ولو كنت بعيد .

اخترتك لأنك الإجابة التي سبقت هذا السؤال .

لكنني وصلت أخيراً إلى قناعة الرضا بالنصيب .

لم أعد أفتش عنك كما كنت أفعل ، ولا أراقب حضورك وغيابك كما يفعل المشتاق .

تغيّر كل شيء الآن ، لأن برودك علّمني كيف تنطفئ المشاعر بصمت .

لم أكن جبلاً لأصمد ، و لا قلباً من حجر كي لا أتأذى .

كنتُ فقط إنساناً أحبّ ، و حين أدركتُ أنك حلمٌ لا يُمسك ، تركتُ يدي تنسحب من وهم الوصول .

واليوم ...

لم أعد ألومك ،

ولا ألوم نفسي ،

فكلّ منّا اختار طريقه الذي يناسب قلبه ،

أنتِ اخترتِ الصمت لينفيني من حياتك ،

وأنا اخترتُ النجاة من عشقك

وليس في النجاة خيانة ،
بل خلاصٌ من خيبةٍ كانت تكبر في صدري
كلما تأخّرت في الرد ،
وكلما قلت كلمةً باردة ،
وكلما عدت دون أن تعود .
وتعلّمت أخيراً أن بعض الطرق لا تُقطع ،
وأن بعض القلوب لا تُفتح مهما طال الوقوف على عتبتها .
وأن التمسك بما يؤلم ...
هو شكل آخر من أشكال الفقد .
كتبتُ لك رسالة طويلة ، ثم تذكّرتُ أنك لا تحب الإسهاب ، فبدأتُ أمحو نصفها
ببطء ، ثم تذكّرتُ أنك لم تعد تملك وقتاً للقراءة ، فحذفت نصفها ،
ثم تذكّرتُ أنك لم تعد تملك المساحة لقراءتي ،
قلّصتُ الرسالة حتى صارت كلمة واحدة تُشبه آخر ما تبقى مني ،
حدّقتُ بها طويلاً . . .
ثم تذكّرتُ أنك لا ترى ما أكتبه
فحذفتها و تركتُ الصفحة فارغة تماماً كما تركتني فارغاً .
حذفتُ السطور واحداً تلو الآخر كأنني أقتلع ما تبقى من تعلقي بك ،

و أزرعُ بدلاً منه شتلةً من الألم في كل ليلةٍ افتقد اتصالك ، كأن الليل يرفض أن يخلق أبوابه على صوتك .

أقف على عتبة محادثتك ، أتأمل الحروف و هي عاجزة عن صياغة رسالةٍ تتسلل إلى فؤادك فتدفعه ، فيصطف ثمانية و عشرين حرفاً عاجزين عن وصف ما يختلج في أيسري .

لو أرسلت لك كلمة أحبك ،

هل ستصل إلى مرادها ، أم ستضل طريقها إلى فؤادك كما ضللت أنا فيك ؟

هل ستحرك فيك شيئاً كما حرّكت كلماتك الجبال في قلبي ؟

كتبتُ لك القصائد كي تعود إلي ، و كتبتُ الرواية كي لا أعود إليك ، أو لأتذكّر لماذا يجب ألا أعود إليك.

حين لم تُرجعك القصائد ، لم أكتب الرواية لأجلك ، كتبتها لأتخلص منك .

كنتُ أظن أن الكلمات قادرة على استعادتك ، فاكشفتُ أنها الوحيدة القادرة على إبعادي عنك .

كل صفحة كتبتها كانت تُبعدك خطوةً عن روعي النازفة ، و كل فصل كان يمحو أثراً من ظِلِّكَ ، و كلما تقدمت في السطور كنت أخرج منك أكثر ، وأعود إليّ أكثر .

وما ينهك في حقيقة الأمر أنك لا تستطيع الصراخ ، ولا تملك الهرب ، فتبقى معلقاً بين حبٍ يوجعك ، وعزّة نفسٍ تخذلك ، تتلقّى القسوة بصمتٍ كأنك أنت المخطئ في شعورك .

أَمْشِي نَحْوَكَ فَيَخِذْ لِي الطَّرِيقَ ، وَ أَمْشِي بَعِيداً عَنْكَ فَيَخِذْ لِي الْحَنِينَ ، كَأَنَّكَ قَدْرٌ
لَا أَسْتَطِيعُ بَلُوغَهُ وَ لَا أَمْلِكُ الْهَرَبَ مِنْهُ .

أَسِيرُ إِلَيْكَ فَاتَعَثَّرَ بِقَلْقِي ، وَ أَسِيرُ بَعِيداً عَنْكَ فَاتَعَثَّرَ بِقَلْبِي

لَا أَنَا الَّذِي وَصَلَ فَهْداً ، وَلَا أَنَا الَّذِي فَارَقَ فَنجا .

أَشْعُرُ بِأَنَّنِي أَغْرَقْتُ فِي مَا أَخْفِيهِ ، لِأَجِدَ نَفْسِي أَعُودُ إِلَيْكَ بِالْكَلِمَاتِ لِأَتَنَفَّسَ بِهَا .

أَهْرَبُ مِنْكَ إِلَيْكَ ، وَ أَعُودُ إِلَيْكَ لِأَهْرَبُ مِنْكَ .

عَالِقٌ بَيْنَكَ وَ بَيْنَكَ . . .

وَأَحْيَاناً ، أَشْعُرُ أَنَّنِي لَا أَكْتُبُكَ ،

بَلْ أَكْتُبُ نَفْسِي الَّتِي ضَاعَتْ فِيكَ ،

وَأَحَاوَلْتُ أَنْ أَسْتَعِيدَهَا

حَرْفاً بَعْدَ حَرْفٍ ،

وَجَرْحاً بَعْدَ جَرْحٍ . . .

لَطَالَمَا رَاوَدْتَنِي أَسْئَلَةٌ عِدَّةٌ :

مَاذَا لَوْ قَرَّرْتُ أَنْ أَكُونَ الْغَائِبَ عَمداً ؟

أَنْ أَخْتَارَ الْغِيَابَ كُنْجَاةً مِنْ حُضُورٍ لَا يُقَدَّرُ ؟

مَاذَا لَوْ نَزَعْتُ عَنْكَ لَقَبَ الْبَطُولَةِ لِأَنَّنِي اكْتَشَفْتُ أَخيراً أَنَّنِي كُنْتُ أَقَاتِلُ وَحْدِي ؟

ماذا لو أنني أتقنُ دور الغائب ، و اختفيت من كل الأماكن التي اعتدت أن تجدني فيها ؟

ماذا لو بدلتُ صوتي ، و توقفت عن التثرثرة و المزاح ، و مسحت كلماتي التي أحببتها يوماً .

ماذا لو لم أعد أشاركك ما يعصر قلبي ، أن أختفي كما يختفي الضوء حين يقرر الليل أن ينتصر ، أن أترك رسائلك معلقة في المحادثة دون رد ،

أن أغلق هاتفي ، أحذف حساباتي ، أغير رقمي ، و عنوان منزلي .

ماذا لو تركتك تواجه صمتك وحدك كما تركتني أواجه وجعي وحدي ؟

ماذا لو فهمت أخيراً أنني امرأة لا تُستعاد ؟

رغم هذا عليك أن تعي جيداً أن قسوة العزيز لا تُحدث ضجيجاً ، إنها وجعٌ صامتٌ يا عزيزي .

تجاوزتك ؟ نعم ، لكنني لم أستطع النسيان ،

كأنه رفاهيةٌ لا أملك ثمنها ، لأن بعض الذكريات لا تُنسى ، تظل معلقة كظلٍ لا يملك جسداً .

لم أعد أعاتبك كما كنت ، أو أشتاق لاسمك على شاشة هاتفي كما كنتُ أفعل ، لأنني أدرك أنك لن تتصل .

لكنني حقاً أفقدني حين كنتُ معك ، لتصبح ذكرى لا تؤلم ، و لا تمر دون أن تترك أثر .

كنتُ أظن أن النسيان عدل ، ثم اكتشفت أنه يجيد التحيّز ، ينسى التفاصيل
العادية ، و يُبقي على ما يوجعني بدقة مؤلمة ، كأن ذاكرتي تتعمّد أن تعاقبني بك
وما بين التمسك و التخلّي . . .

أقف كمن لا يعرف كيف ينجو ، كلّما هممتُ بالإبتعاد عنك ، جرّني الحنين من
قلبي

أنا واقعةٌ بين ذاكرةٍ لا تموت و واقعٍ لا يحتمل وجودك ،
و قلبٍ يذبل في غيابك .

فكل من حولي ظنّ أنني تعافيتُ منك ، لكنني في الحقيقة أتقنّت فنّ الإحتمال .
ولأكون صريحةً بما يكفي :

كنتُ أعلم أن الطريق إليك مغلق منذ البداية ، و مع ذلك مشيتُ إليك حافية القلب
، أتعثّر بك ، و أنهض بك ، ثم أسقط مني . . .
أعطيتُك كل ما فيّ ، حتى لم يبقَ مني شيءٌ لي .
و الآن يا وليد . . .

فهمت أن المبادرة ليست بطولة ، و أن التضحية لا تُثمر حين تكون من طرفٍ
واحد ، و أن الركض خلف من لا يلتفت ليس حباً ، بل إنهاكاً .
لم أخسرك ، لكنني خسرتُ نفسي و أنا أحاول أن أربحك .

ظُلُكُ الَّذِي يُشْبِهُ حَدُودَ وَطَنِي

كنتُ أظن أن الغربة هي تلك المسافة الممتدة بيني وبين فلسطين ، بيني وبين سوريا ، البلدين الذين انتميتُ إليهما ،

أحدهما في الدم و الآخر في شهادة الميلاد .

لكنني حين التقيتُ بك ، اكتشفتُ أن الغربة ليست في الأرض التي تركتها ، بل في الروح التي تبحث عن مكانٍ تستقر فيه .

كنتُ تشبه الوطن بطريقةٍ أربكتني ، كنتُ ظلّاً يشبه حدودي ، يشبه خوفي ولهفتي ، يشبه تلك المساحة التي كنتُ أحتاج أن أنتمي إليها .

شعرتُ معك أنني وجدتُ وطناً يمشي على قدمين .

لكن الأوطان التي نجدها في الناس لا تدوم طويلاً .

و في نهاية المطاف لم أعد إلى فلسطين ... وخسرتُك أنت أيضاً .

صرتُ أعيشُ أَلَمَ الغربتين معاً :

غربة المكان ، و غربة القلب

شعرتُ بك وطناً ، ثم عدتُ لاجئةً ، غريبةً ، عابرةً في حياتك .

لكن هذه المرة لم أهرب من وطنٍ ضائع ، بل من وطنٍ كنتُ أنتِ حدوده .

في غربتي الأولى حملتِ حقائبي ، و في غربتي الثانية حملتُ قلبي .

والقلب أثقل من آلاف الحقايب

وما يؤلمني أكثر من رحيلك ، أنني أجبرتُ على أن أظهار بأن رحيلك لا يعني لي شيئاً ، أن أرتدي صلابَةً لا تشبهني ليبدو الأمر وكأنه لا يعنيني بينما هو يطعن قلبي بنغزات الشوق .

وتؤلمني أيضاً فكرة أنه كان بإمكاننا إصلاح الأمور بيننا ، وكنت أتمنى أن تكون أنت الطرف الذي يحاول لأجل ذلك ،

لو أنك فقط مددت يدك نحوي

لو سحبتني من أنياب النصيب

لقد تمنيت أن يحدث ذلك حقاً وحينما أيقنت أنني أنتظر شيئاً لن يحدث غادرتك ، ورغبة كبيرة في البقاء تكتسحني .

أتدري ما معنى أن تختار ألماً من بين ألمين يا وليدي ؟

أحدهما يقتلك مرة ،

و الآخر يقتلك مرتين

أي أن تبتر بعضك بيدك ، لتتقذ بعضك الآخر .

بعدها لم أشعر يوماً بأنني بحاجة لأحد... لقد نال مني الفقد وتركني فارغة من كل شيء ...

و كأنني الركن المعتم في الغرفة الذي لن يطاله النور .

ترى هل طالك الفقد في شيء ؟

أم أن الغياب لم يمستك كما مستني ؟
هل مررت بليلةٍ واحدةٍ شعرتَ فيها بأن صدرك يضيق من فراغي ؟
أم أن الأيام مرّت عليك خفيفة ،
بينما كانت تمرّ عليّ كأنها تحمل حجراً فوق قلبي ؟
كم أتمنى لو ألتقيك للمرة الأخيرة .
أن أنظر في عينيك الدافنتين و أسألك كيف هُنت عليك ؟
كيف ارتضيتَ لي هذه الندوب ؟
ألم أسكن في قلبك ولو لنصف ثانية ؟
ألم يمرّ اسمي في خيالك كما يقطن اسمك في نبضي ؟
كنتُ أظن أن أشعاري سوف تعيدك إلي ، فاكشفتُ أنها الوحيدة القادرة على
إبعادي عنك .
كل سطرٍ كتبته كان يُبعدك خطوةً عن روعي ، و كل فصل كان يمحو أثراً من
ظِلِّكَ ، و كلما تقدمت في السطور كنت أخرج منك أكثر ،
وأعود إليّ أكثر .
لأنني وصلتُ أخيراً إلى حقيقة أن الرجل يصبر على كل شيء ، إلا عن أخذ
الفتاة التي أحبها بصدق ، فلو أنك أحببتني حقاً لكنت خفت أن يسبقك إليّ أحدٌ
غيرك .
ولو أنني أقمتُ في قلبك ساعةً ، لكُنت أقمت من أجلي حرباً .

و لما تركتني أتأرجح بين الشك و اليقين و أحمل وحدي ثقل الإنتظار .
أدركت أنني كنتُ أعيش معركة لا ترى أنت منها سوى دخانها ،
بينما كنتُ أنا أحترق في لهيبها .
ولا تظن لأننا تشاركنا كل هذه التفاصيل معاً بأننا سننتشارك أيضاً نسيانها ،
النسيان عملٌ فرديٌّ يا وليدي
لا يُنجزه القلبان معاً ،
ولا يتقدّم فيه اثنان بالخطوة نفسها . . .
أحدنا ينسى لأنه لم يُحب بما يكفي ،
والآخر يتألم لأنه أحبّ أكثر مما يجب .
هو معركة صامتة يخوضها كلّ قلبٍ على حدة ،
يخسر فيها شيئاً ،
ويستعيد شيئاً ،
هو طريقٌ طويلٌ أسير به وحدي و أحمل فيه صورك ، وصوتك ، وغيابك ،
وأحاول أن أضعها على الرصيف
لأكمل طريقي دونها .

لم أعد أطلب منك أن تنساني ،
ولا أرجو أن تتذكرني .
كل ما أعرفه أنني سأخرج من هذا الوجد وحدي ،
كما دخلته وحدي . . .
وسأترك لك نصيبك من الذكرى لتتعامل معه كما تشاء .
فكرت كثيراً في الدعاء بأن يجمعنا القدر ، و حين هممتُ إليه تلعثمت كلماتي ،
فماذا سأدعو الله ؟
أن تتغير قلوبٌ لم تتحرك من تلقاء نفسها ؟
أن تحدث معجزة فيتغير رأي والدي ؟
أم أحتاج دعاءً آخر ليتغير رأي والدك ؟
أم أرجو بأن تحبني بما يكفي لتقاتل من أجلي ؟
أيُّ دعاءٍ هذا الذي سأرفعه للسماء و انت لم تفكر به في الأرض ؟!
في النهاية وجدتُ نفسي أقاتل وحدي في معركة لا يعرفها غيري ،
أقاتل ثلاثة جبهات و قلبي وحده يحمل الراية .
أحاول أن أثبت للحياة أنك تستحق ،
بينما انت لم تحاول يوماً أن تثبت لي أنني أستحق .
قبلتُ الأمر رغم مرارته و قررتُ الابتعاد عنك ،

حتى لو كان في صدري ألف ارتجافة .
ليس القرار الأسعد بالنسبة لي ، لكنه الأصوب ، القرار الوحيد الذي يحفظ ما
تبقى مني .
فقد تعبت من أكون الوحيدة التي تقاتل و الوحيدة التي تخاف و الوحيدة التي
تخسر . . .
أعرف أن الحب الذي لا يُقاتل صاحبه لأجله
لا يستحق أن يُقاتل أحدٌ من أجله .
و على الرغم من كل هذا الهراء . . . مازلتُ أحبك
حُباً يشبه الندبة :
لا تؤلم دائماً ،
لكنها لا تختفي أبداً .
ستظلُّ تذكّرني بك .

في الصفحة الأخيرة هناك إهداء يُكتب لمن لن تُنصفهم الكلمات مهما بلغت الحناجر .

ولا يليق لهذه السطور أن تكون إلا إهداء لمن علّما معنى البقاء ،

وظلّ حضورهم أقوى من الفقد ، فيبقى هذا الإهداء شاهداً على .

حضور لم يقدر الموت على محوه

لتلك العينين التي كانت تثقب قلب العدو

وسبابةٍ أشدّ وقعاً من القصف

و صوتين كانا يتركان في الكلمات زلزالاً يكفي لرسم ملامحهما من

خلف اللثام حتى لو غاب كل شيء .

إلى حذيفة و ناجي . . .

وختاماً

ما بين الفقد و الوطن أهدي هذه الرواية لمن جمع كليهما في قلبي

حسناً لأعترف بآخر اعتراف

لم أهديكم روياتي فقط ، بل جزءاً من قلبي و عمري كله . . .

وبين ما خسرتة من وطن ، وما خسرتة من قلب ،

كتبْتُ يا وليدي هذه الرواية .

"وما بين زحام الوجوه ، وامتحان الغربة ، وحكايات
العاشقين ...

لم يثبت في قلبي إلا أنت
كأنك يقيني الأخير، ووطنٌ لا يضيع "

الفهرس

3	الإهداء
5	المقدمة
7	كلمة للقارئ
9	الفصل الأول : حين كبرتُ داخل خريطة
18	الفصل الثاني : أكتبُكَ لأبقى
38	الفصل الثالث : ما لم أكن أراه
48	الفصل الرابع : ثباتُ رجل
66	الفصل الخامس : وداعٌ لم يسمعه أحد

بعض الظلالِ أوطان ،

نلجأ إليها

حتى ونحن نهرب منها . . .